تلك هي

سعد العبيدي

تعارف عابر

شاخت مرابع البصرة وحواريها من وجع الحرب، يبس سعف نخيلها الوارف على ضفاف جداولها واحوازها من ألم الحرب، أصبحت أشباح نخيل تعصف بها رياح الغل، تغلف ما تبقى من خضرة بساتينها ذرات رماد حملتها رياح جنوبية من آبار نفط أحرقت عمداً في الكويت، كست ابنيتها الرثة لونا حزينا غير مألوف لأبنائها، وجعلت هواؤها المشبع بالرطوبة يدمي العيون.
انها في مأتم كبير، تلبس ثوبا أسود.
اهلها، حيطانها، كبارها، صغارها مكتئبون يطحنهم وجع الخذلان.
ألسنة النار المتوهجة للحرب تأكل العباد والزرع والارواح التائهة، ثمان سنوات لم تنقطع فيها مسيرات الشهداء، ألبست الجدران سواداً باهتا، أرصفتها تمتلئ بالحفر والعثرات ومياه مطر أختلطت بأخرى آسنة، شوارعها الموحلة تمتلئ بعسكريين مكسورين في حرب أخرى، أصبحوا بين يوم وليلة يتسكعون ضباطاً وجنوداً دون تمييز، فالرتب التي ميزتهم في أيام عزهم أسقطتها هذه الحرب الاخرى، وازالت فوارقها مشاعر اللوم على طريق الانسحاب، وابقتهم نتيجتها المفزعة يهيمون على وجوههم مثل اسماك تتخبط في بركة يتسرب منها شحيح ماء أخضر، منعزلين عن العراق، يعيشون ألم الغرق ووأد الحياة.
كريم الجندي الجامعي، لم يدر على وجه التحديد: أكان الذي يحدث حوله من صنع خياله المشوش؟.
أم أن القضية برمتها من الدقة في الوضوح قد أخذت وضع كابوس؟.
ومع هذا فإنه واعٍ لأصوات الماشين من حوله، والأنفجارات القريبة، ولمزيد من التيقن، ألتفت الى جندي يسير قريبا منه تائهاً يطحنه الكابوس:
- سأخلع هذا الحذاء الذي رافقني طوال خدمتي العسكرية، مثل ظلي، لم أعد اتحمل وزنه الثقيل، بعد هذا المشي الطويل، من الكويت حتى صفوان.
يستدير اليه، يتفحصه بامتهان، كأنه يستعيد بتأمله ذكريات ماضٍ مؤلم لفها العقل في خلاياه الملآنه، وأحداث حاضر مفزع تفتش عن مكان لها بين المكبوت فيقول:
- ومن ينظر اليك فيما اذا خلعته ورميته تذكاراً لأم المعارك.
ألم تر الجميع من حولك، قد خلعوا أحذيتهم بعد أن تورمت اقدامهم من طول المشي؟.
فيجيبه:
- لم أعد أتحمل حتى التفكير بمواصلة المشي بهذا الوزن الذي أحس بسببه وكأنني أحمل على ضهري شوال رز من العنبر يزيد على المائة كيلو، لا أعلم كيف يمكن الوصول إلى الناصرية.
- دعنا نصل البصرة أولا، ومن بعدها يحلها من حشرنا في الكويت، حشر المنبوذين في طواحين رعب، لا يمكن الخروج منها بسلام.

البصرة تمطر سماؤها بغزارة، كأنها قربة ماء هائلة، إنشقت فجأة ، استمرت على غير عادتها طوال ليلتين تبكي مطرا، ارادته كافيا لغسل هموم أهلها وعسكرها المهزوم، وتحسس أيام الطوفان في غابر الزمان، فتغطت شوارعها وأزقتها القذرة بالوحل، وباتت أرضها تنفث رائحة كريهة، مثل زفرة السمك المنشور على حبال التجفيف صيفا، فضاقت أمكنتها على هذا العسكر المسجل في سجلات حربها الخاسرة، أنه قد نجا من معركة لم يُشاهد فيها عدوه، وضاقت كذلك على أبناء محافظات أخرى، قدموا من بعيد، يسألون ويفتشون بين جثث تناثرت على طول الطريق الموسوم بالموت، علهم يعثرون على من سُجّلَ مفقوداً في ذات السجلات.
عشائرها التي اعتادت ايقاد نار مواقدها اوقات النصر الموهوم، لتَضييف أصحابه المارين قرب مرابعها، أطفأت نيرانها أثناء عودتهم مكسورين، احتجاجا على خسارتهم منازلة لم يكونوا لها متهيئيين، وربما ترقبا للاستفادة من وهن الانكسار، أو محاولة لازاحة مشاعر الذنب التي تجثوا على صدورهم نتيجة الرقص التزلفي على مسرح القائد الكبير.
في لجة المطر الغزير يرفع كريم رأسه في ضيق، يعاود الكلام مع رفيق الدرب الذي سايره من قبل صفوان قائلا:
- لم أتشرف باسمك حتى الآن، لقد مشينا نصف نهار، ولم يسأل أحدنا عن اسم الآخر.
وبأنفاس تزفر التعب يجيبه الآخر:
- وما فائدة الاسماء، في أجواء يسقط كل خطوة فيها انسان، دعنا هكذا بدون أسماء، لنتجنب الحزن على بعضنا، فيما اذا سقط ميتاً في الطريق.
كريم الذي حطمت قسوة الاحداث في داخله كل الحواس، بعد ان أخذت منه الصديق العزيز، وتركته شبه إنسان يذوب في بحر تقطعت فيه أوصال الامل، وعقل لم يبق فيه مجال الى الحزن:
- أنا (كريم) من الناصرية، جندي أحتياط في الفوج الثالث اللواء الخامس عشر، هارب من الحرب، دفنت هذا اليوم في صحراء الكويت وليد الاقرب اليَّ في هذه الحياة.
رد الآخر وقد طبع ابتسامة باهتة على شفتين هزيلتين، يتصاعد الشارب الكث بعد انفتاحهما، ليعطي صورة طبيعية، فيها الكثير من الاطمئنان:
- وأنا (حسيب) من كتيبة مدفعية الميدان الثالثة، هارب أيضا من الحرب.
السرادق المخصصة لتضييف الموعودين بالنصر بقيت مفتوحة، دون مواقد، الاستراحة فيها والمبيت على حصرانها الرثة لقاء ثمن يدفع مقدما، الشاي المغشوش يقدم كذلك بثمن يدفع مقدما.
البيوت العريقة في الزبير والبصرة أمتلأت بمعارفها من الاصدقاء المنسحبين، واؤلئك القادمين يتابعون اولادهم المفقودين، من لم يجد مكانا من المحظوظين، افترش أرضية اسمنتية لبناية بقي هيكلها خاوياً، يستريح فيها، ينتقد، يشتم، يلوم، يجد رفيق طريق يعاود معه السير الى ديار الاهل البعيدة عن البصرة بلا حذاء.

الاقوياء من المنسحبين بينهم كريم ورفيق دربه حسيب، تحولت أبدانهم الى آلات تتحرك بشكل ميكانيكي دون إحساس بالألم، لا يتوقفون، يستمرون بالسير مع استراحات بسيطة، حتى غص بتواجدهم الشارع والزقاق والطريق العام، كأنهم في رتل مشاة يسير بلا انتظام، لا يمكن تحديد بدايته ولا نهايته على حد سواء.
- انظر الى ذلك الذي يسير قريبا منا، انه ضابط برتبة لواء.
تفحصه بعيون شوشت بصرها قطرات مطر تسللت اليها وسأل:
- كيف عرفت، والرجل لا يحمل رتبة عسكرية، وقد خلع الحذاء مثلنا، وسار كذلك مثلما نسير على غير هدى؟.
- انه اللواء سمير عبد الحق مدير ادارة الفرقة، لقد نزع رتبته العسكرية، وسار على هذا الطريق المشؤوم، بعد أن عطلَّ سائقه سيارة الصالون التي كانت بحوزته، خوفا من تعرضها للقصف الجوي.
- انها الاشتراكية التي وعدونا بتطبيقها، ها هي تطبيقاتها، تساوي بيننا جنودا وضباطا نسير جميعا على طريق الهلاك.
الوقت يمر بطيئا، مغموسا بالتعب، الجوع يعصر البطون، مطعم الوردة البيضاء في البصرة القديمة، يقدم وجبة رز مع حساء العدس ورغيف خبز بارد بعشرة دنانير أو لقاء بندقية كلاشنكوف بمخازنها العامرة من العتاد المصنع في معامل الاسكندرية... شرط مسبق، بتوفر العتاد، واذا ما خلت الصفقة من العتاد، تنقص الوجبة رغيف خبز او اناء حساء.
الجائعون كثر، عليهم ان يقرروا سريعا، هكذا هي التعريفة، لا وقت للانتظار، فالمطعم مزدحم، وشروطه واضحة تنادي بها الحاجة أديبة من طاولتها المنصوبة في مدخله، مطعما أسسته شعبيا من القصب الممشوق على الرصيف المحاذي لمحل بقالتها المعروف بالغش في الوزن، وخليط المواد، حشدّت له جهد أولادها الثلاثة، وبناتها الاربعة، ذكية بالفطرة، أدركت الفرصة سانحة، تنبهت سريعا الى تجارة حرب مربحة.
وجبة غذاء تقدمها من بقايا غش في الميزان، أقتطعته من الفقراء، لا تكلف ربع دينار، مقابل بندقية محشوة بالعتاد تقتنصها من الجياع المنكسرين.
البندقية مطلوبة بشكل غير مسبوق، تجارها يعرضون أسعارا تقارب العشرة دنانير. امامها فرصة لرفعها الى خمسة عشر دينارا، قدّرها عبد المجيد، مهرب السلاح المعروف الى مقاتلي الاهوار هذه الايام.
الربح الوفير أنعش آمالها بالغنى السريع، فأخذت تفكر جديا بفتح مطعم على نفس الطراز في ساحة (أم البروم، وسط العشار) لجمع أكبر عدد ممكن من البنادق والمسدسات، تنوي ادخال القاذفة والهاون الى القائمة، بعد ان سأل عبد المجيد عن واحدة منها هذا الصباح.
- الآن، وصلنا البصرة، الوقت بات متأخراً، دعنا نسد رمقنا بوجبة غداء في هذا المطعم، نحسبها عشاء أو سحور، لم يعد الأمر يفرق عندي، فقد تداخلت الاوقات في هذا

الزمن البائس، لدي بندقية سأعطيها ثمنا، ومعها عشرة دنانير، تمنحنا وجبتين سوف نتذكرهما ما دمنا على قيد الحياة.
تقدم كريم خطوة باتجاه المطعم قائلا:
ـ دعك من البندقية التي قد تحتاجها في الطريق، لدي ما يكفي من المال لوجبتين، واذا لم تعطنا هذه العجوز ما نريد سأقوم بتهديم المطعم على رأسها، لقد طفحَ بيّ الكيل.
وجبة الطعام هي الألذ على طريق الجوع الطويل، أفترقا بعدها بساعتين دون عناق، وكأنهما لم يتعارفا.
توجه كريم صوب محلة الجمهورية، يمشي حافيا وفي أعماق أنفاسه اللاهثة يحس القيود، وبطء الخطوات التي يسير بها.
يمضي الوقت ثقيلا، ينكمش تدريجيا، يضيق به الفضاء، تقترب منه جدران المحلة التي يقصدها، يحس وكأنها تخنقه عند آخر الطريق.

الطريق باتجاه الجسر العسكري الوحيد بين العشار والتنومة، يقتصر عبوره على سيارات القادة التي سَلمَتْ من الاستهداف الأمريكي، وتلك العائدة لآمري قواعد الجيش الشعبي ممن نجا من الاستهداف، حتى أصبح مزدحما، يصطف على جانبي مدخله من جهة العشار مئات العسكريين الساعين الى الانتقال الى الضفة المقابلة بينهم حسيب، وكانهم يرون في عبوره الخلاص، وكأن شط العرب هو الفاصل بين الموت وبين الحياة.
حسيب لا يقوى على الانتظار وقوفا في المكان المزدحم، تحرك يمينا، قابل تمثالا برونزيا من بين عشرات أقيمت لضباط استشهدوا في الحرب مع ايران اراد صانعها ابراز قساوة الموت، وتلبية رغبات الرئيس بالانتقام.
تكلم مع التمثال بصوت مسموع، كمن يكلم إنسانا حيا:
- نريد تماثيل أخرى لشهداء آخرين على حدودنا مع الكويت والسعودية التي دخلنا معهما في حرب أخرى، نريدها تؤشر بايادیها نحوهم، مثلما تؤشرون الى إيران، عسى ان تحرس بلادنا بدلا منا جنود هاربين.
يتجمهر حوله جنود مثله هاربون، مقهورون، يريدونه أن يتكلم عنهم، يروّح عن كاهلهم.
يَسمعُ صوت من قريب.
- ما تقوله صحيح، بالامس مع ايران، واليوم مع الكويت، وفي الغد مع سوريا، لن نخلص مادام هبل موجوداً، يرفع يده عاليا فوق رؤسنا المطئطئة.
الثناء في مواقف الانفعال القلقة يشعر صاحبه برهبة تزحف تحت الجلد الذي بلله المطر.
ينتصب الشعر الندي في مكانه، يحس قوة غريبة في داخله الخاوي، كتمها مرغما، ترك المكان متجها صوب الجسر.
الضباط يحاولون إجبار جندي الانضباط العسكري، على فتح بوابة الجسر التي يغلقها مع مرور أية طائرة معادية في أجواء البصرة، يهددون، يزمجرون، يقذفون غل مصيبتهم عليه عسكريا بسيطا، كأنهم يريدون تحميله نتيجة الحرب.
الشارع المكتظ بالامطار والبنادق المنكسة، يدفع جوقة جنود أخرى، يوصلهم الى الجسر، وقد أعطب الغضب منافذ تفكيرهم، لا ينتظرون العبور.
أعطى بعضهم ما بحوزته من نقود وسلاح الى صاحب مشحوف يركن قريبا من تمثال، اتخذه مرسى لمشحوفه، أسماه مرسى العقيد، تيمناً بصاحب التمثال العقيد الطيار حمزة الربيعي، ينقل من دفع أولا الى الضفة الثانية، حالماً بالخلاص.
العبور هنا تجارة سلاح أخرى رائجة، تعريفتها ثابتة، لا جدال بشأنها، مثل تلك التي أسستها الحاجة أديبة لمطعم الوردة البيضاء على الطريق الرئيسي المار بالبصرة القديمة.
يتقدم حسيب مقتنعا أن العبور على الجسر أمر صعب، وان التفتيش عن مسلك آخر مسألة ممكنة.
يسأل صاحب المشحوف في مرسى العقيد:

- بكم العبور الى التنومة.
- بالسلاح الذي تحمله.
- ومن لا يملك سلاحاً.
- عليه ان يعبر على الجسر، أنا هنا أتقاضى أجري، بندقية كلاشنكوف، ولا بأس بمن يملك مسدس طارق.
يهم بتسليم بندقية أعزها أيام القتال، يتذكر كلمات كريم باحتمالات الحاجة اليها، يسمع لغطا من جوقة جنود جمعتهم وحشة الطريق، تآلفوا في السير عليه، يصلون الجسر تواً، يشاهدون حشداً في القريب من مدخله، يفقدون السيطرة على أعصابهم، يهلوسون بعبارات مخيفة، يندبون الحظوظ، يُشَبهون أحاسيس البقاء تحت وطأة الرغبة في عبوره السريع، باجتيازهم طريق الموت الممتد من الكويت حتى صفوان داخل العراق، يشتمون الكويت والعراق والامريكان وأنفسهم بنفس المقدار.
يترك حسيب موقعه، يلغي فكرة المقايضة لتحقيق هدف العبور، يلتحق بهذا الجمع الهائج، يقف بالمقدمة، يصيح بأعلى صوته وبلحن المونولوجست المعروف عزيز علي:
كلها منه.
مصايبنا وطلايبنا كلها منه.
أساس الفتنة من صاحبنا.
تستهوي حالة الانجراف التدريجي الى الشتم المبطن هذه، نائب الضابط هادي الجبوري القريب منه، يحاول اثارته، كمن يفتش عن شخص يآزره في الشتم، فوجده جاهزاً، حثه على الاستمرار بالانتقاد، مؤكدا وبنفس علو الصوت:
نعم كلها منه.
مصايبنا كلها منه.
مصيبتنا من صاحبنا.
تفرجوا وشوفوا حالتنة.
فجاء المنولوج نوعا من الازاحة والترويح، جمعهم في المسير باتجاه الجسر دون الحاجة الى التعارف، وذكر الاسماء.
الوضع برمته لا يحتاج الى التعارف، بل لرفقة مسير من أجل الاطمئنان والتخلص من الهموم ولو لدقائق.
طائرات الحلفاء تحلق في سماء الجسر بارتفاعات واطئة، يتبعثر المحتشدون، يُنَزلُ حندي الانضباط، العارضة لغلق البوابة، هكذا هي التعليمات، تتفرق الطائرات مرتفعة في أعالي السماء، لا ترمي قنبلة أو صاروخاً لتدمير الجسر الوحيد، فمراجعها استثنوا هذا الجسر من دعاوى التدمير، لعدم ايمانها بنظرية الحصر المكاني، أو لرغبتها بدفع الاهل الى تدمير بعضهم البعض بمحاولات النفاذ من الحصر المكاني، ثم ان الجسر لا يستحق التدمير، لانه عسكري قديم نصبته كتيبة الهندسة العائدة الى الفيلق السابع، يقدر الحلفاء ثمنه الذي لا يساوي ثمن قنبلة ذكية.

الطيارون يتبخترون، رسموا بدخان مقاتلاتهم الحديثة أحرف الولايات المتحدة الامريكية، امعاناً بالضغط على النفوس الهالكة.
يتدخل النقيب حامد قريباً من العارضة المنصوبة لبوابة الجسر، يطلب رفعها فورا:
- الم ترون هذه الطائرات؟.
انها تهين كرامتنا، وانتم وحكومتكم تهينونها، أي حياة هذه التي نعيشها يا رب العالمين؟.
يتدخل حسيب قائلا:
- أي كرامة هذه التي تتكلم عنها سيدي، لقد تركناها في حفر الباطن، ألم تر حالنا هنا، ثلاث ليال لم نذق فيها طعم النوم، كأننا أموات، والكبار في بغداد ينامون على ريش نعام ويتبخترون أمام الكاميرات؟.
حصل النقيب على جرعة دعم، وكأنه تحرر من خوف كان جاثما على صدره، فقال:
- افتح والا اطحت برأسك في الحال.
يتمتم جندي الانضباط العسكري البائس مع نفسه:
- سأفتح العارضة، ساترك المكان، بل والبصرة كلها، لكم وحدكم عيثوا بها فسادا كما تريدون.
ترتفع العارضة بعصبية شديدة، فتتأرجح بين زاويتي الصعود والنزول بشكل حاد، يهجم المتجمهورون دفعة واحدة، باتجاه الفتحة الوحيدة، يتدافعون مع بعضهم، يسقط ثلاثة منهم في النهر، دون ان يتنبه المتدافعون لسقوطهم، يخرج أحدهم سابحاً نحو الركيزة القريبة، وتبتلع المياة الباردة الاثنين الآخرين.
في موقف التدافع هذا، كل فرد يمثل نفسه، يحاول انقاذها والوصول الى الضفة الثانية، أملا في العثور على وسيلة أنقاذ تقله حيث تقيم العائله بعيدا عن ماكنة الهرس العملاقة.
الجهة الثانية من شط العرب، عالم مختلف عن الجهة الاولى، الجنود فيها يشعرون وكأن شوارع التنومة وازقتها ساحة معركتهم، متحفزين جميعا، طاقتهم مستنفرة من أجل الحصول على وسيلة نقل، أي وسيلة كانت وان رست على عربة يجرها حمار، تبين لهم بعد ان حققوا النصر في عملية العبور ان نصرهم وهمٌ، مثل كل الانتصارات السابقة في الحروب السابقة، وتبين لهم أيضا أن الحقيقة الباقية في حياتهم هذه، مغادرة المكان.
اربعة سيارات حمل تَركت نقل البضائع من والى البصرة، أُجبِرَ سائقوها على نقل التوابيت الخاصة بالشهداء، الاولى في المقدمة، اكتملت تعبئتها بخمسين تابوتٍ لخمسين شهيدٍ، تَشرعُ بالتحرك بأمرة الملازم خالد من مركز الاخلاء.
المتدافعون يصلون نهاية الجسر هرولة، بينهم النقيب حامد، وقريبا منه حسيب ماسكا بندقيته التي زاد اعتزازه بها بعد المساومة المذكورة مع صاحب المشحوف قبل قليل.
يقف الجمع صفا بمواجهة السيارة التي تهم بالمغادرة مع توابيتها من الشهداء، وكأنها المنقذ الوحيد، يصعدون اليها، يفرغون حمولتها من التوابيت.
ينادي أحدهم:
- أصعدوا الى بغداد.
يحاول النقيب حامد التدخل بما تبقى في داخله من قيم عسكرية فيقول بحماس:

- انها تحمل شهداء، ما تقومون به غير صحيح.
يؤازره الرائد محمود المسؤول عن السيارات الاربعة:
- انزلوا منها، واجبها محدد بنقل الشهداء.
يرد نفس الصوت الذي نادى بالصعود:
- الحي ابقى من الميت.
ينطلق السائق مذعورا بحمولة تزيد عن المائتي جندي، جميعهم في وضع الوقوف، وبعضهم يتعلق على الجانبين، يحاول النقيب اللحاق بهم، يفتش عن مكان قرب السائق يليق برتبته العسكرية التي عاود وضعها على كتفه عند وصوله الجسر، يدفعه أحد الجنود الساعين الى احتلال المكان قائلاً:
- اذهب ودع الرتبة تنفعك.
يهوى على الارض، يحس صوت ارتطام رأسه بها دون ان يسمعه، سحنته الشاحبة تغدو مع مرور اللحظات أكثر زرقة. لكن أحدا لم يلتفت الى حالته، سوى حسيب الذي خيل اليه أن الصوت الآتي من داخله، صار يلتف معه في كل الجهات، أندفع اليه كالمحموم، يحاول الوصول الى مصدر الصوت. يتمتم:
- الله يلعن هذا اليوم، ويلعن من كان السبب.
تجيب عينا النقيب، بحركة لا ارادية لجفنين عاطلين ودمعتين خرجتا غصباً.

نجح الساعون توا في مغادرة المكان، حصلوا على مبتغاهم دون وداع من أحد، فتشجع المترددون، ومن سبقهم في عبور الجسر المذكور، اندفعوا بما تبقى من طاقة لاجسامهم المنهكة، قصدوا السيارات الثلاثة، قبل اكتمال حمولتها من التوابيت التي تبعثر الموجود منها وسط الشارع بنفس الطريقة التي حدثت في السيارة السابقة، تُحتل ثلاثتها من جموع العسكريين بجرأة لم يتيسر مثيلها في سوح القتال، يُدفع سائق السيارة الأخيرة من مقصورة القيادة ركلا، لاحتجاجه على رمي الشهداء بهذه الطريقة التي نشرت جثامينهم على مساحة تزيد عن العشرة أمتار، منظر الجثامين، يوحي وكأنهم قتلوا توا في قنبلة فرقتهم أجساداً مبعثرة حول مكان الانفجار.
يجلس خلف المقود بدلا عن سائقها المطرود، رئيس عرفاء، ضخم الجسم بكرش مدلوع الى الامام، وشاربين طويلين أخذ وقتا في رعايتهما يفوق الوقت المخصص من عنده لادامة السلاح، تتحرك جميعها بأهازيج تعبر عن فرح معجون بالخوف ووخز الضمير:
- هذا اليوم اللي نريدة.
يتفرج الباقون غير المحظوظين على من فاز بفسحة وقوف داخل البدن الواسع لسيارة الحمل أو من جلس على غطاء اطارها الامامي، أو من تعلق ببابها الخلفي، جميعهم محسودين، وكأنهم وصلوا أهاليهم، وأخذوا حماماً حاراً وتمتعوا بفراش الزوجية الوفير، منظرهم يثير الرغبة بالتحدي، واستثمار الفرص المتاحة، هكذا هي النتائج المتوقعة لمعادلة الخسارة النفسية في الحرب.
الحركة تدب من الباقين بكل الاتجاهات يتوزعون غريزيا على شكل مجموعات، تسيطر على ما تبقى من سيارت تقف في المكان بعضها يخص أناساً جاءوا يفتشون عن أولادهم المفقودين او الشهداء، لا مجال الى الرفض أو الامتناع، الضرب والسحل من خلف المقود أبسط انواع الرد المتاح.
سيارات صالون تقف بعيدا عدة أمتار تختفي من الشارع تماماً، تجنبا لفوضى الاستحواذ من العسكريين، مجموعة تتجه صوب الازقة، تلمح من بعيد عربة يسحبها جرار زراعي، يركض أفرادها بالاتجاه المطلوب، كأنهم في سباق لمسافات قصيرة، يدفعون صاحبها، يصعدون اليها دون التفكير بالخطوة القادمة والاتجاه الذي اليه يسيرون، مجبولين على ترك المكان الذي أصبح ركنا من اركان جهنم لا يطيقونها باي حال من الاحوال.
يستفيق حميد من إغماءته، يسأل عما حدث، فيجيبه حسيب:
- لقد ارتطم رأسك بالارض، اثر دفعك من أحدهم نافسك على الجلوس جنب السائق.
- لعنة الله على هذا اليوم الاسود، ماذا سيحل بنا بعد.
- الحمد لله على نجاتك من هذه الصدمة، انها قاتلة.
- لقد فاتتنا فرصة السيارات الاربعة المخصصة لنقل التوابيت، التي تحركت باتجاه بغداد.

- لم يكن مكتوبا لنا الصعود بها، دعنا نواصل السير مشيا، عسى أن نجد وسيلة نقل في الطريق، لقد كرهت المكان، لا أطيق البقاء، لنتحرك وندع أمرنا الى الله سبحانه، قالها حسيب.
الراكبون الفائزون، وأضعافهم من الماشين على الاقدام سلكوا الطريق الواصل بين التنومة ومدينة العمارة، يعتقدون انه الوحيد الضامن للنجاة، بينهم وبعيدا عنهم تتنقل سيارات عسكرية لقادة كبار، حافظوا بفطنتهم على وقودها كاملا، لهذا اليوم المشؤوم، محمية بجنود وجوههم مكفهرة من شدة القلق، مستعدون، متأهبون، أصابعهم على الزناد، لم يخطر على بال أحدهم فكرة التنازل عن مكانه المريح في مؤخرة السيارة.
عجلة آمر اللواء السادس والثلاثين العميد الركن سلام، تتعرض الى كمين، أعده عشرة جنود أعياهم تعب المسير، جلبوا جذع نخلة أيبستها ملوحة مياه البزل القادمة من جهة ايران، وضعوه وسط الطريق، أنتظروا قدوم سيارة... أية سيارة، فكانت السيارة المخصصة للعميد هي التي جاءت بالصدفة، هجموا عليها ببندقيتين متبقيتين لديهم، وبسرعة الصولة المعهودة في قتال الكمائن:
- انزلوا جميعا، قالها حامل البندقية بعد تصويب فوهتها الى صدر العميد.
- أنا آمر لواء.
- آمر لواء في الجبهة وليس في العراق.
- انزل واترك لنا السيارة، والا سافرغ ما في المخزن من اطلاقات في صدرك، وستُحسب شهيدا بأي حال من الاحوال.
يعلق أحد الجنود المشاركين في الكمين المنصوب باستهزاء:
- لا تأبه سيدي، الشهيد يحصل على قطعة أرض وسيارة، ومجموعه أنواط تؤهل ذويه أن يكونوا من أصدقاء الرئيس.
شيخ مسن، يؤشر بعصا توكأ عليها في السير الى المكان الذي هو فيه، يوقف سيارة عسكرية لانكروزر تنقل ضابطين من اللجنة النفسية لديوان وزارة الدفاع، يقصدان المقر التعبوي للقيادة العامة للقوات المسلحة شمال التنومة بعشرة كيلومترات، يأمل في التمكن من استقطاع دقيقة واحدة من وقتهما، متوسلا دفن بقايا جنود قَصفت سيارتهم طائرة معادية قبل نصف ساعة، يخاف أهل القرية مسائلتهم في حال دفنها قبل استحصال الموافقة، وبنفس الوقت يخشون عقاب الله من تركها عرضة لنهش كلاب سارعت الى مكانها بعد انتشار رائحة اللحم المشوي بالنار الملتهبة.
رد عليه اللواء الركن منذر:
- أدفنوهم رحمة بأرواحهم، من سيسألكم في هذه الظروف.
- سيدي، لقد أعتدنا الخوف من خيالاتنا، ثم يتقرب خطوة من العميد سعد الجالس على اليسار، يلقي التحية ويهمس في اذنه:
- اتركوا المكان بسرعة، الطريق غير آمن، أقل ما فيه هجوم من قبل الاهالي لافراغ سيارتكم من الوقود او اجباركم على التنازل عنها واكمال المشوار مشيا على الاقدام، لقد

تعرضت عدة سيارات عسكرية الى النهب قبلكم بقليل، الله هو الساتر، هو الرحيم بعباده المساكين.
يترك الضابطان المنطقة يعتريهما قلق شديد، ينقلان صورته وتقريراً مفصلا عن الحالة المعنوية المتردية لمنتسبي الوحدات المنسحبة عشوائيا الى أعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة المتواجدين في مقر قديم لفرقة عسكرية تركته من أيام الحرب مع ايران، ينوهان بوصف دقيق عن توسلات الشيخ صاحب العصا لما يتعلق بدفن الجنود المستشهدين على الطريق، ووضعية الجنود الماشين في شوارع البصرة، وضياع المقرات، وحالة الانفعال حد الهياج التي تنبئ باحتمالات حصول شيء غير طبيعي.
- ماهو الشيء غير الطبيعي؟. يسألهم رئيس الأركان بقدر من التهكم، ويضيف.
- هل هناك أمرٌ غير طبيعي أكثر مما يحصل الآن؟.
ثم يغيّرُ لهجته من التهكم الى النقد، ويكمل قائلا:
- أنتم معشر النفسانيين تطرحون الاشياء نظريا، اعلمونا ما نفعله للحيلولة دون حصول أمر غير طبيعي عنه تتكلمون، أو تسكتون لا حاجة للكلام واثارة المواجع والظنون.
- سيدي، نحن نحلل ونعطي تصوراً قريبا من الواقع، ولا معرفة لنا بالامكانيات المتاحة للتعامل مع ما يحصل.
يهدأ قليلا ويكمل أوامره:
- لا بأس قدموا ما لديكم من مقترحات وتحاليل، انهوها بسرعة ليس لدينا ما يكفي من الوقت لسماع التحاليل.
- سيدي، نرى بداية ألا يبقى احد في شوارع البصرة من العسكريين الذين يحملون على اكتافهم المتعبة ثقل الهزيمة، عفوا: الخسارة، وما نتج عنها من احباط، لأن بقاءهم انتقال عدوى لهذا الاحباط العدائي الى جمهور تتلقف مجساته كل المثيرات السلبية لانتاج غير الطبيعي.
يرد رئيس الاركان:
- ألم نقل لكم ياسادة انكم نظريون؟.
- إن الدولة لا تملك قطارا يسير على سكة حديد، لا تحتكم على سيارة نقل عسكرية تتنقل على طريق، ولا طائرة ركاب تطير. كيف ننقل كل هذه الجموع التي ازدحمت بها شوارع البصرة وازقتها؟.
اتركوا الامر هكذا واذهبوا مبكرا لمقرات الفيالق المعلومة، حاولوا ان ترفعوا معنويات القادة المصابين بالاحباط، قبل ان يحدث الشيء غير الطبيعي الذي عنه تتكلمون.
مغادرة المقر الاعلى دون عقاب في موقف جدال محبط أوقات الهزيمة العسكرية، التفاتة من خالق عطوف، والوصول الى البصرة ومن ثم الى أبي الخصيب حيث المقر المتقدم للمركز النفسي بسلام في هذا المساء نعمة من الخالق الكريم.
الطريق الى المقر في أبي الخصيب، ساحلي طويل موحش، تتوالى انحرافاته يمينا وشمالا مثل أفاعى المياه المالحة، يتردد سطحه غير المستوي بين الضيق والسعة، يحجب النظر عن سالكيه تلك الشجيرات التي نمت على حافاته في عقد الاهمال الاخير،

مما يزيد من وحشة السير عليه، تبادل الحديث طوال هذا الطريق، يقلل قلق الوحشة، بدأه العميد سعد بصوت خافت، لا يسمعه أفراد الحماية الاربعة الجالسون في الخلف، قائلاً:
- أوامر رئيس الاركان لزيارة مقرات الفيالق خارج البصرة، جاءت في وقتها المناسب.
- كيف؟. رد اللواء منذر:
- الوضع لا يتحمل التأخير، سيقع غير الطبيعي في القريب العاجل، ربما الآن على هذا الطريق الذي نسلكه وحيدين بين قرى يعيش أهلها غضب غير مسبوق، أو في الغد من أي مكان يتواجد فيه جنود يحسون الم الانكسار، كل المؤشرات النفسية تدل على قرب وقوعه.
- يا أخي، ألا يمكن أن تُفهمُني ماهو غير الطبيعي الذي تقصده، حتى أني لم أفهم قصدك عندما قدمت شرحا عن الموقف المعنوي لرئيس الاركان.
- معقول أبا أركان ما فهمت المقصود، دقق بوضع الجنود، وردود فعلهم الغاضب، وتجاوزهم بالسب على المسؤولين الكبار بينهم الرئيس، ستفهم واقعاً إذا لم يتم أيقاف تدهوره بقدرة قادر، فأنه سينفجرسلوكا مدمرا بالضد من الدولة.
- هل يعقل هذا؟، ألم تر أنَّ في تحليلك قدراً من المبالغة؟.
- أبداً، أحس وقوعه في كل لحظة تمر، وفي كل مكان نمر، ومع هذا دعنا ننتظر، لاننا سنراه في القريب.
- أرى من المناسب، بل ومن الضروري ارسال السيارة العسكرية مع قوة حماية كافية هذه الليلة لتبقى في الضفة الثانية لشط العرب، قريبا من المفرزة الخاصة بزوارق القيادة العامة للقوات المسلحة.
- لماذا الليلة؟، لماذا لم ننتظر الى الصباح؟.
يجيب العميد:
- لتفادى أي تأخير محتمل في عبور الجسر صباح الغد، وأضاف:
- أرى أن مغادرة أبي الخصيب يفترض أن تكون الساعة السابعة صباحاً، بسيارة الواجبات التي تُوصلنا الى مرسى الزوارق، ثم الى التنومة التي تنتظرنا فيها السيارة اللانكروزر، ومنها نسلك الطريق الى العمارة حيث المقر الرئيسي للفيلق الرابع.
اللواء الركن منذر المسؤول الاول في المركز، احتسى جرعات القلق الذي أحسه عند رئيس الاركان ومعاونه، وأدرك حقيقة التفسير المذكور بالرجوع الى تصرف الشيخ صاحب العصا، وحوادث متفرقة على الطريق، فوافق بسببها على المقترح الذي قدمه العميد سعد المختص في الشؤون النفسية دون نقاش، مضيفا من عنده:
- من الضروري أن يترك المقر في هذه الحالة جميع الضباط الاطباء النفسانيين الملتحقين بالمركز قبل الساعة السابعة أيضا.
- هذا صحيح، على ان يجري الالتقاء بهم في بناية الدائرة ببغداد للتداول في الخطوة القادمة، مع بقاء ضابط اداري، وبعض جنود الحماية بانتظار الاوامر اللاحقة حسب تطورات الموقف الذي لا يمكن الاطمئنان اليه.

البصرة هذه الليلة بلا كهرباء، يتحرك في شوارعها عسكريون بلا انضابط، يتمدد على أرصفتها المتهالكة جنود محبطون، يتنقل بين محالها أشباح شباب يحملون مصابيح، يدخلون بيوتا، يخرجون منها بسرعة غير معهودة في مثل هذه الظروف المغلفة بهموم الاعياء، كانهم يبيتّون شيئا يسعون لاتمامه، في وقت غاب فيه رجال الامن والمخابرات والاستخبارات عن مواقع اعتادوا فيها مراقبة الانفاس بصعودها ونزولها، فَضلوا التجمع في دوائرهم مهمومين خائفين، لا يعرفون الخطوة القادمة، وما يخبئ لهم القدر.
اللواء منذر يود الاطمئنان على صديقه اللواء الركن كامل ساجت قائد قوات الخليج المعنية بالدفاع عن مدينة الكويت، اثر سماع انسحابه وقادة فرقه الى البصرة وتواجدهم مؤقتا في النادي العسكري القريب من قيادة القوة البحرية، قبل التوجه الى العمارة، يجده خارج الغرفة، ماشيا في الساحة المبلطة بالاسمنت مع صديق بصري حضر لتهنئته بالسلامة، ومواساته بالنتيجة التي لا تبشر بالسلامة، لم ينم طوال ساعات الليلة الفائتة والتي سبقتها، كان الشعور بالتأنيب يلح عليه فيعذبه، حتى حوله الى شجرة تمتد في جذورها وأغصانها الى ماض بعيد تغوص في ثناياه صور داكنة، يسحقه عالم ينكمش ليتمدد دون الوصول الى نقطة الاقتناع، حوله الى واد من الاحزان والذكريات المرة، ومكان جامد الا من حنين صورة ومرور نسمة عابرة يدرك حفيفها في زمن يعي تماما أن الناس فيه تحولوا الى قرود راقصة.
يريد الاستمرار في الكلام، كأن دماغة، محشو بانواع الكلام، يرفع رأسه الى الاعلى قائلاً:
- ربي أعفو عنا لما فعلناه. فيهتز جسمه تشنجا، يحدّق بمن حوله، تلمع في عينية ومضة حزن عميق صامت فيكمل:
- لقد فعلنا الكثير في هذه الحرب الملعونة، كنت شاهداً على تصرف أهوج لسبعاوي ابراهم الحسن قبل شهرين، جريمة ارتكبها في ساحة البيت الذي يقيم فيه بمدينة الكويت، ضحاياه عشرة شباب كويتيين جُلبوا له، بعد الشك في اشتراكهم بعمليات رمي على مقر المخابرات العراقية، رصهم في صف واحد، بالحديقة الجميلة لقصر يعود الى أحد الامراء أتخذه سكناً له، بدأ باطلاق النار على رأس الواقف منهم في البداية من مسدسه الشخصي، كنت أراقبه عن كثب دون التفكير بمنعه، لانه لا يتوانى من وضع الاطلاقة التي تلي في رأس من يريد منعه من اطلاقها، لقد كان غريبا في تمتعه باختراق الرصاصة رأس الأول واستقرارها في رأس الثاني، ليموتا سوية بنفس المكان.
في هذه اللحظة التي يرقبها الحاضرون بصمت، دون أمتلاك شجاعة التعليق لفض كثافة سكون لم يكن عابراً قط، بل مقصود يشبه تلك الحالات النادرة التي يمر بها حبيبان سكنا، لا لكي يتحاورا مع بعضهما البعض، بل ليرعيا عملية وصال مرتقبة.
الصوت يخفت قليلا من شدة الالم، ليعاود الكلام سائلا اللواء منذر الذي يسمع بشغف:
- هل هذا من أخلاق الاسلام ؟.

يستمر في الاسترسال، لا يعطي مجالا لغيره في الكلام:
- لقد حضر العديد من الكويتيين الى مقري، والى الجامع الذي أصلي فيه الجمعة، يشكون أعمالاً أكثر فضاعة لسبعاوي وعلي حسن المجيد، لم أستطع الرد عليهم، وبدلا من الرد بلعت مرارتها، أكاد ان أنفجر حزناً ويأساً، الشعور بالذنب يقتلني واقفا.
يسأل الموجودين حواليه، وكأنه يسأل نفسه:
- من أين اتتهم هذه الشهوة بالقتل، كأن الواحد منهم قد توقفت في عقله المضطرب تلك الفكرة الاجرامية الاولى ابان أنتقاله من الطفولة الى المراهقة، وكأنها قد وجدت لها منفذا في الخروج على أرض الكويت؟.
كيف ساواجه ربي؟.
بأي عذر أرد على أسئلة الخالق يوم الحساب؟.
من هنا ياسادتي أبتدأت الكارثة، يوم رأينا استواء العز والبؤس، البذخ والحرمان، التقريب والابعاد على مائدة واحدة، كل شيء في طريقه الى التدهور، والقادم أكثر تدهورا.
لم ينته الحديث، فشريط الذكريات طويل، يقطعه دخول قائد الفرقة السادسة والعشرين العميد الركن فؤاد الى النادي مع ضابطين من ضباط ركنه، ومجموعة جنود لا يزيدون عن الثلاثين، هم الملتزمون بامر الانسحاب نظاميا، لوحدات فرقته التي تبعثرت في الطريق، يريد هو الآخر ان يتكلم، لشدة الانفعال، يشكو موقف قائد فيلقه السابع عند الاستفسار منه عن المكان الذي يفترض أن ينسحبوا اليه، ورده الغريب:
- أختر مكانا من العراق وانسحب اليه، لقد فقدنا الاتصال بالقيادة العامة.
يكمل قائدالفرقة حديثه بسؤال:
- هل هذا مقبول من قائد فيلق محسوب على عائلة الرئيس؟.

إسقاط جدارية الرئيس

الثاني من آذار 1991، يتوقف المطر عن النزول، ايذاناً باشراقة شمس وزعت اشعتها المنكسرة على ارصفة الطين البصرية، رتل الماشين على طريق الكويت البصرة مستمر، كأن الحج قد انتقل بطقوسه على هذا الطريق، ساعته السابعة، بداية تقليدية ليوم جديد، عُدَّ مثل الايام الخمسة التي سبقته، لا بداية لها ولا نهاية.
ساحة سعد، نقطة الالتقاء الجغرافية لهذا الطريق، بآخر يؤدي الى العمارة، الكوت ومن ثم بغداد، أصبحت بحكم موقعها، الملتقى الاول لجموع عسكر مازالت تنسحب، وما زالت اعدادها بازدياد، أختلط جل افرادها بباعة الوجبات السريعة من عربات خشبية يسحبونها بانفسهم، وبالمحتاجين والسراق، وتجار الحروب.
يقف أمام سيارته الخاصة بالحمل في ركن الساحة الشرقي، موسى رمضان بلباسه العربي الجنوبي، تنبعث من داخله هزة أنتشاء لا يعرف سببها، وبجانبه شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة، قريب الشبه من هيئته العامة، كأنه الابن البكر، إنسان حذر يتلفت بكل الاتجاهات، يرصد بقايا أمن عسكري قد يداهموا المكان، يقتنص من يود التخلص من سلاحه، بيعا، لم يحدد سعرا قطعيا للسلاح المطلوب، يتركه لحالة العسكري البائع، بعد ان كون خبرة معرفية جيدة بنفوس المنكسرين الساعين لنقل اهانة شخصية، يحسونها من نتيجة الحرب الى اهانة عمدية لسلاح لم ينفعهم ما بعد الحرب، ولدولة لم تنصفهم أوقات السلام وفي زمن الحرب، يدفع في الغالب لكل بائع سعراً مختلفا، بعد ان يفاصله على انفراد، في هذه الساعة المبكرة من النهار امتلأ نصف حوض سيارته بنادق ورشاشات، وما زال يفاصل القادمين طالبا المزيد.
تجلس في الركن الآخر من الساحة، أمرأة اربعينية، بوجه مدور، موشوم بعلامات متفرقة فوق الحنك، تلف على خصرها عباءة تلوثت أذيالها بالوحل الاسود الثقيل، تحتكم على خمسة أوعية من البنزين المحسن، في كل وعاء عشرة لترات، سعرّت اللتر الواحد بثلاثة دنانير، تفاصل بثقة، لا تقبل التنازل عن هذا السعر الذي يعادل في قيمته المدفوعة ثلاثة او اربعة بنادق في سوق موسى الشعبي، متأكدة انها ستبيع بضاعتها التي تعي الحاجة اليها اكثر من السلاح الذي لم يعد نافعا في حماية البلاد، تترصد دخول عدة سيارات قادمة من محافظات العراق الاخرى، متيقنة انهم سيدفعون المبلغ المطلوب للحصول على البنزين اللازم لاكمال مهامهم في السؤال والتفتيش، تنادي ولدها ذو الثمان سنين:
- عباس، خذ هذا الوعاء واذهب صوب السيارة البرازيلي التي دخلت توا الى الساحة، عل سائقها يسأل عن البنزين، لا تنسَ أبدأ بأربعة دنانير للتر الواحد، واذا رأيته يمتنع أنزل الى الثلاثة كآخر سعر، تحرك دعني أرى شطارتك.
الساحة تغري الجالسين والواقفين على متابعة الانشطة المتعددة بمتعة التشفي من رمز أوصل بلادهم الى الحضيض.

من بعيد تمرق في الشارع القادم من الزبير دبابة مسرعة، تترك خلفها فتيلا من غبار الطريق، أنتبه الى صوت محركها واحتكاك سرفها بالارض الجمع الغفير، يلتفتون الى منظرها المثير، لا احد يصدق قدومها وطائرات الحلفاء لا تستثنِ في صيدها آلية تتحرك على الطريق.
موسى يتجه الى القريبين منه، يستعرض معرفته بالسلاح، ليقوي موقفه في المساومة:
- انها دبابة روسية تي 72.
يسأل أبنه:
- لماذا هي هنا في هذا الوقت المبكر من الصباح؟.
وبقصد تلطيف الاجواء وتخفيف القلق عن المتواجدين من حوله، يكمل حديثه:
- ساشتريها اذا ما رغب سائقها في البيع، سأعطيه مائة دينار، لا سأوصل المبلغ الى ثلاثمائة دينار، اذا ما كان خزان وقودها ممتلئ.
البعيدون عن موسى، وغير العارفين بالدبابات يعيشون لحظات ذعر، عندما تخيلوها واحدة من دبابات معادية دخلت المنطقة لاكمال احتلال العراق، واستمروا في تخيلهم سبل الهروب من مواجهتها، سائقها الذي نجح في إيصالها سالمة من حفر الباطن الى ساحة سعد، لم يترك مجالا لاكمال نسج القصص الخيالية، عندما دخل بها الساحة مسرعا، موجها مدفعها الطويل صوب الجدارية الخاصة بالرئيس الموشح باوسمة منحها لنفسه، يطلق آخر اطلاقة بقيت من معركة لم تنفع فيها الاطلاقات، وكأنه احتفظ بها لهذا اليوم الموعود، يدعس ما تبقى من طابوقها المهشم بسرفة يتعالى منها الضجيج، اضحاها ركاما، وأضحت فكرة وجودها رمزا للانتصارات الموهومة عدماً، وجعل الحواجز النفسية التي بُنيت بين الرئيس والشعب طوال اثنتين وعشرين عاما مجردة من معناها الموهوم.
يصفق الحضور، يهتفون بحياته كأشجع الجنود العراقيين، يتناول موسى بندقية اقتنصها توا من عريف في لواء المشاة السادس والثلاثين، يطلق في الهواء ثلاثين اطلاقة كل ما موجود في مخزنها، يقلده الابن، بنفس الاتجاه، تتعالى الاصوات المؤيدة، يترجل السائق من دبابته تاركا محركها يدور، ومدفعها مصوبا باتجاه العاصمة بغداد، كأنه يبحث عن أحد من رواد الساحة ليكمل مشوار بدأه لمعاقبة حكامها القابعين في قصورها العديدة.
يدخل الجندي المرهق بين الجموع المشدوهة، ملوحاً بيديه، يضيع وسط زحام الجنود، تنتقل الاشاعات عن واقعته بسرعة، وتنقلها قليل من وسائل الاعلام، ينتشر الخبر في عموم البصرة انتشار النار في الهشيم، بطل يفتش عنه الجميع يسألون عن سر اختفائه، يتمناه البعض معه في هذه المحنة التي لم يعرف لها مآل.

لعنة أم

الحاجة رضية، تهيئ تنورها لوجبة خبز توزعه على زبائنها في شارع عشرين بمحلة الجمهورية مثل الصباحات الفائتة، ساعية الى العيش بكرامة العمل، تستمع من جارتها قصة الدبابة التي حطمت جدارية الرئيس، باسقاطات تضيفها عن السائق الشاب القوي، ذي الوجه الجميل، والنسب الأصيل، ترد في نفس الوقت على الجارة المستمتعة بالكلام وبصياغة الاضافات:

- بارك الله فيه، عملٌ لم يستطع أحد القيام به، وكأن البلد خلا من الابطال.

تكمل الجارة ما بدأته من حديث:

- أم وليد، هناك أبطال في العراق كثيرون، لكننا لا نستطيع البوح باسمائهم لأننا خائفون، أنت تعرفين لماذا أصبح الجميع خائفين.

- أعرف جيدا لماذا نحن خائفون، الله يحفظهم لأهلهم، لم نعد نملك في دنيانا سوى الدعاء.

يستمر الحديث، بعيدا عن البطولة والدبابة، يتشعبان به الى مصاعب الحياة، يذهبان بعيدا الى الاولاد والزواج والانجاب، والقلق من عاديات الحياة.

كريم يصل عتبة الباب، عيونه متورمة، جامدة، كأنها تحجرت في بؤبؤها، فقد السيطرة على شفاهه الذابلة، وعلى جسده الذي يتكسره الألم، يتقدم خطوة من الباب، يحاول طرقها، فيمهله صوت الخالة رضية، تتكلم عن نينها في تزويج وليد بعد الانتهاء من الحرب مباشرة، يعاود الكرة، يريد فتحها دون أن تدمع عيونه أو يتعالى وجيف قلبه من الصدمة، فيفشل ثانية، يحس بوهن في قدراته، واستلاب في ارادته كلما حاول طرق الباب، يجمع قواه، كل ما تبقى له منها أو ما أبقته له منها أحداث اليوم السابق، يطرقها ويهمس مع نفسه بصوت مخنوق:

- أفتحي ياخالتي، فان قلبي يكاد أن ينفطر، أفتحي، فلم أعد أحتمل الانتظار.

يتوقف الكلام، تسرع الحاجة رضية الى الباب، تفتحها وقلبها يكاد أن يتوقف من شدة القلق، ومنظر كريم المُغطى بتراب المعركة، وبقايا دمٍ وطين موزعة على بدلته الرثة، ترمقه بنظرة خاطفة تمتد من الرأس الحاسر بلا (بيريةٍ) أعتاد وضعها عليه عندما كان يصطحب وليد في زياراته السابقة، لتصل الى القدمين الحافيتين، ومن ثم الى الوجه الملون بلون السمرة المنطفئة، والذقن المعفرة بالتراب، والعيون التي يميل بياضها الى الصفرة.

فتسأله قلقة:

- كريم، ماذا حصل لك؟.

تَصرفُ زبونتها، تغلق فوهة التنور، كأنها أدركت المصيبة مرسومة على وجه شاحب يقترب صاحبه من حافة الموت.

وقف أمامها مشدوها، عيناه الواسعتان، تبدوان منطفئتين، يسيل الدمع منهما دون سيطرة منه، حضنها بحرارة، بكى على كتفها بحشرجة سريعة متتالية، يوقفها مرة بعد أخرى، الصوت الخارج عنها، صوت حلق يشرب ماءً بعد طول يباس.
حدست بفطنتها المعهودة فراق ولدها الحبيب، فصرخت بوجهه:
- كريم..... هل مات وليد؟.
- خبرني، كيف تركته، وهو منك بمنزلة الاخ؟.
- خالتي، أتركيني أموت بين ذراعيك كما أراد وليد.
- كريم كيف تركته..... آه، كيف تركته؟.
- لم اتركه، لقد حملته جريحا ينزف دما نقيا لساعات، حاولت ايقاف سيارة عسكرية لاضعه فيها، كي أوصله الى المستشفى قبل أن يفارقني، ضربني الانضباط العسكري فيها بأخمص بندقيته على رأسي فسقطتُ والمرحوم مغشيا عليّ، وبعد أن أفقت وجدته قد فارق الحياة.
- خالتي لم يحتضر، لم يتعذب أبداً، أنطفأ سريعا مثلما ينطفئ النهار، لقد دفنتهُ بيديَّ في صحراء الكويت بعد عجزي عن الاستمرار بحمل جثته الطاهرة، ويأسي من أن تقف لي سيارة عسكرية هاربة من المعركة تنتشلني وإياه.
صمتَ قليلا، وقلبه يحترق مثل قلبها أم لولد وحيد.
حاوَلتْ أن تصرخ من فرط ألمها، فخرجت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج، تنبئ عما في داخلها من غليان لا يحسه أحد غيرها.
صحتْ من نوبة الغليان، صرخت، صوتت بلغة الأم الثكلى، رفعت يديها الى السماء:
- لماذا كل هذا العذاب؟.
يسمع الجيران صرختها والانين، تجتمع النسوة حولها من كل الامكنة القريبة، وكانهن في انتظار الحدث، أو يترقبن حدوث مثله لكل عائلة تمتلك عسكريا في جبهة القتال.
لم تمزق ثيابها، ولم تلطم خدودها مثلما يجري في مصائب أهلها، أتجهت مسرعة الى التنور، تناولت محراثه، مسكته بيدها اليمنى كمن يحمل سيفا في معارك الاجداد، يسير جنبها كريم لا يريد معرفة قصدها ولا جهة المسير، خطواتها سريعة، مثل العسكر في رتل المسير.
تدندن بكلام مسموع:
- لعنة الله عليه هو السبب، لعنة الله على البعثيين هم السبب، الله ينتقم منهم كانوا السبب، سأنتقم منهم، عسا أن يقتلوني مثل وليد.
النسوة تسير خلفها، مدفوعات بعضهن بالفضول لمعرفة الخطوة القادمة لهذه العجوز التي جمعت قوة لايمتلكها الشباب، وبعضهن محشورات في الموقف الهستيري حشر القطيع، وجهتها مركز الشرطة القريب من البيت، يتعالى الصراخ بالتدريج، والجمع يزداد هو الاخر بالتدريج، حتى تجاوز الخمسين أمرأة، حملت بعضهن عصي وبعضهن الآخر سكاكين وفؤوس، وخلفهن عشرات الشباب، يهتفون بسقوط النظام.

يرتعب شرطي الحراسة الواقف أمام الباب في قراءته الغضب على وجوه القادمين، شيبٌ وشباب.
يناديهم من قريب:
- الى أين أنتم متجهون؟. الا تعلمون أن الاقتراب من المركز ممنوع؟.
يهاجمه كريم قبل اضافة جملة أخرى لحديثه القصير، يأخذ بندقيته، يطلق منها عيارات نارية هي كل ما في مخزنها الملآن، يلوح بيده:
- ادخلوا.
يتشجع الجمع على الدخول، تعم المكان فوضى غير مسبوقة.
توجه الحاجة رضية بمحراثها الغليض أول ضربة على رأس ضابط قيل أنه آمر المركز، حضر مهرولا لمدارات الموقف، ومحاولة الخروج من المأزق، تكررها بوقع متسارع، فاصبح جسمه يهتز ارتعاشا مع كل ضربة تضربها الحاجة بقوة الغيض الذي سيطر على مشاعرها المتداعية.
تطاير الدم على وجهه المستدير، وبدلته الخاكية غير النظامية.
رد بذهول المذبوح:
- خالتي أنا لست المسؤول، أذهبي الى بغداد، هناك يقيم المسؤولون.
تجيبه:
- لو يسمح لي القدر أن أصل بغداد، لما أخذ أبني من بين يديّ برمشة عين.
تنهال عليه الضربات من كل مكان، ثقيلة متوالية، هدمت قوامه، وارخت ساقيه الطويلتين، فأخذ يتهاوى، منزلقا بجسمه الثقيل على الحائط الذي تناثرت عليه الدماء، وقبل ان يصل الارض، تلقى ضربة من شاب لم يبلغ السابعة عشرة، بسكين لقص السعف على رقبته العارية، قطعت شرايينها، أسقطته أرضا، يتلوى في بركة دماء يتصاعد منها البخار لفرط حرارتها.
باقي أفراد الشرطة يصطفون في الممر مذعورين يتوسلون، يؤكدون أنهم اصحاب أطفال، يهتف عريفهم المسلكي:
- يسقط صدام، يسقط البعث.
يردد من بعده الآخرون ذات الهتاف، يسأله كريم:
- أين مفاتيح السجن.
- انها هناك معلقة في لوحة المفاتيح بغرفة ضابط الخفر.
يهرول اليها، يخرجها من مكانها، لا يكتفي بما قدمه.
يصيح:
- السجن من هنا.
يفتح بابه الحديدية، ينادي منها:
- اخرجوا انتهى النظام، ويلتفت صوب كريم قائلا:
- انا بخدمتكم، لا أريد الموت من أجل نظام كافر.

يلهج المسجونون المحررون بالتحية لمن فك أسرهم، يتجه بعضهم نحو الخارج، يشق طريقا صوب المجهول، كمن ينتظر فرصة سنحت، لا مناص من اقتناصها وان كانت دهليزا للمجهول، لا ينتظر، لا يأمن موقف طارئ قد يتغير في الحال.
سالم إبن البصرة، المسجون بتهمة التهرب من الالتحاق بالجيش الشعبي، يقترب من كريم، يصافحه بقوة، يسأله:
- ماهي الخطوة القادمة.
سؤال جاء عفويا، مثل جندي يسأل آمره عن السبيل الى تنفيذ أوامره.
يرد عليه:
- التوجه الى المشجب لاخذ السلاح، وتوزيعه على الشباب.
يحمل كل واحد منهم رشاشا خفيفا على كتفه، يضع مسدسا في حزامه، يمسك بندقية كلاشنكوف في يده اليمنى، يفعل مثلهم آخرون من المساجين.
شباب من المتجمهرين المسلحين، يستولون على السيارة الخاصة بآمر المركز، ينطلقون بها نحو العشار دون هدف معلوم، سوى المناداة بموت الرئيس.
المشجب يفرغ من سلاحه بثوان معدودات، وكذلك الاثاث وباقي موجودات استباحتها النسوة الغازيات، كل واحدة تأخذ ما تراه امامها، ومن كان ابنها أو ابنتها في القريب، يتشاركون في حمل دولاب أو كنبة، يخرجون بهتافات موحدة بموت الرئيس.
سيدتان تتشاجران على جهاز هاتف أرضي في الغرفة التي كان آمرها الضابط المقتول، تتدخل ابنة السيدة نجية، المعروفة بوقاحتها، تدفع الاخرى جانبا، تأخذ الغنيمة بنشوة المنتصرين، لم يبق في المركز شيئ يذكر من الموجودات.
يتقدم رجل ملتحٍ لا يعرفه الشباب، يحمل قنينة نفط سكبها على اوراق تغطي أرضية الغرفة المخصصة لضابط الخفر، يولع بها من قداحة تبدو ثمينة، يخرج دون سؤال عن فعلته من أحد، ولم يقدم هو من جانبه تفسيرا لأحد.
النار تنتشر، يتصاعد الدخان من النوافذ المهشمة، ينذر بانتشار الحرائق في دوائر ومراكز أخرى حكومية.
يخرج الجمع الذي تضاعفت أعداده عشر مرات مناديا بصوت واحد الموت للطاغية صدام.

أمل

السيقان المتعبة من واقعة المركز تجر أصحابها صوب الشعبة الحزبية، مدفوعين غالبيتهم بحمى الغنائم والانتقام، وبعضهم يفكرون جديا بالانقضاض على النظام.
الشباب الحاصلون على السلاح من مركز الشرطة يلتفون حول كريم الذي أصبح قائدا لهم، يطالبونه بمزيد من خطوات الاقتحام، يسير أمامهم بحماس شديد، وبجنبه سالم المؤمن بضرورة الانتفاض، يلتفت الى اليسار، الحاجة رضية تسير خلفهم بعدة خطوات، أمرأة كبيرة، مرهقة لا يمكنها مسايرة النشاط المفرط للشباب المتحمسين، يتأخر في خطوته، يخبرها بضرورة العودة الى البيت:
- لقد أخذتِ وأخذنا بثأرك، أمل لوحدها في البيت، الوضع لا يساعد على بقائها وحيدة، قبلّها من رأسها أمام الثوار، واعداً اياها العودة لمشاهدتها، ابناً لها مكان المرحوم وليد، بعد اتمام بعض المهام.
قبل أن تودعه عائدة الى بيتها، كما أراد، أنفجرت باكية، بكاءً قاسياً من النوع الذي يقلل وجع الاحزان على قلبها المليء بالشقاء.
الشعبة الحزبية، تغلق ابوابها، يطوقها الجمهور من كل الجهات، اطلاق نار في الهواء يصدر من داخلها، للتخويف أو بقصد التخفيف عن القلق الكامن في نفوس أعضائها الحزبيين، يقترب كريم من بابها الرئيسية، يطلق رشقة من رشاشه كانت كافية لفتح الباب، يدخلها مناديا:
- أخرجوا في الحال.
تخطئه رصاصة من أحد الحزبيين، يرد عليها بعشر رصاصات اردت المقابل قتيلا، يتصاعد الهتاف بموت الرئيس، يزداد الاعجاب بشجاعته والايمان بقيادته، يستسلم باقي الرفاق.
الجمهور المنفعل، لا وقت له لقبول الاستسلام، او لا مجال عنده للتفكير سوى بالانتقام، لكل واحد منهم قصة حزينة مع رفيق بهذه الشعبة الحزبية، يتحين الفرصة للانتقام منه أو من غيره ترويحا لانفعالات كبتت من صولات الجيش الشعبي أيام الهروب من الخدمة العسكرية، جعلت الانتقام يتجمع بلحظة واحدة قل فيها الزمن عن ثانية، جعلت الرفاق طعما سهلا لسلاح المنتفضين.
وهم كذلك يطلقون النار ويرفسون بالاقدام، يأتي صوت من بين الجمهور:
- لا تقتلوا الرفيق جابر، انه لا يشبه باقي البعثيين، لقد انقذني من الاعدام، يندفع نحوه، ليحول دون قتله.
يتدخل كريم، لانصاف صاحب الصوت، مناديا من موقعه:
- توقفوا جميعا، لم نأت للانتقام، اخرجوا من بقيَّ على قيد الحياة الى خارج البناية، سننقلهم الى الجامع، وهناك سيكون الحساب لمن ظلم.

يخلع جابر بدلته الزيتوني برمشة عين، يفضّل البقاء بالسروال الذي يضعه تحتها للوقاية من البرد، يهتف بسقوط الطاغية، يذهب مع منقذه الى البيت مذعوراً، لا يكلم أحداً من أهل البيت، يدخل في غيبوبة، كأنه لن يصحو منها في القريب.
البناية تُخَربُ بنفس طريقة التخريب الحاصلة في المركز، تُحرق من قبل ذات الشخص الذي أحرق المركز، الفرق بين الموقعين قتيل واحد في المركز، وخمسة قتلى في الشعبة الحزبية، تُركوا على أرضية القاعة المخصصة للاجتماعات نهماً للنار.
المسلحون يزدادون عددا، سيارتان من موجود الشعبة أصبحت بحوزتهما احداهما نيسان باترول، والاخرى تويوتا نصف طن نقل... توزعَ السلاح سريعا على المهاجمين بطريقة الغنائم العشوائية، تُنهب المحتويات بنفس الطريقة العشوائية.
الجمع الذي يتكاثر مثل كرة الثلج المتدحرجة، ينشطر على نفسه، أبطال جدد يظهرون قادمين من الاهوار، قادة جدد يشعرون أنهم الاولى والاجدر بالقيادة، عسكريون قلائل يلتحقون بالجمع المنتفض، يعتقد بعضهم أنه الاصلح للقيادة.
سالم الراكب في سيارة أمين سر الشعبة الباترول جنب كريم، يشير:
- علينا التوجه الى مقر الفرع الحزبي في الطريق بين الجمهورية والقوة البحرية، انه رمز سيء لابد من تهديمه في الحال.
يصلونه متأخرين، فالمقر الحزبي قد أحتل، والنساء مع الرجال والاطفال يخرجون منه محملين بالمقتنيات، غنائم حرب كأنهم أحد اطرافها المنتصرين، آخر المغادرين لهذا المقر الذي أخاف المساكين لعقدين من الزمان، قبل ان تشبُ فيه النيران، أمرأة جاوز عمرها الستين عاما، تحمل شاشة حاسوب، تحسبها تلفازاً.
سألها سالم بدعابته المعهودة:
-هل تعرفين هذا الذي تحملينه ياحاجة؟.
- نعم انه تلفاز.
- لا انها شاشة حاسوب.
- انت تكذب عليّ، تريدني أن أتركه لتسرقه مني.
- أقسم انه كذلك.
ندبت حظها ورمتها على أرض الشارع، لتتهشم قطع متناثرة مثلت في عقلها الباطن عائدا لظالم يراد الانتقام منه، واتجهت صوب القوة البحرية مع آخرين يسيرون بنفس الاتجاه على أمل الفوز بغنيمة من أملاك الظالم لا تكون شاشة حاسوب.

الوقت يمضي سريعا، كل شيء وقعه سريع، حتى الموت يحدث سريعا، ثوار من أهوار العمارة يدخلون البصرة سريعا، مدججين بسلاح أبقوه جاهزا لهذا اليوم الموعود.
المقرات الحزبية تتهاوى بضرباتهم المتوالية، مثل قطع دومينو مرصوفة لأغراض اللهو الطفولي.
كريم وصديقه الجديد سالم، تعارفا وتقاربا خلال الساعتين اللتين مرتا سريعا، يتعاهدان على المضي الى الامام في مشروعهما لتهديم الرموز الشاخصة للحكومة حتى آخر المشوار.
يشير كريم:
- دعنا نترك مقر الفرع الحزبي، لا فائدة من البقاء، فعضو القيادة القطرية عبد الغني عبد الغفور قد هرب الى بغداد، يعني أنتهاء سلطة الحزب في المحافظة، ويعني من وجهة نظري ضرورة الاسراع بانهاء سلطة الامن الابشع والاهم من سلطة الحزب.
يرد سالم:
- أنت الاعرف لانك عسكري ولديك الخبرة في هذه الامور.
- ومع هذا أردت أن أتشاور معك، لاننا تعاهدنا على السير سوية الى النهاية.
- أنا معك الى النهاية، ومهما يكون شكل النهاية.
- ان مهاجمة مركز أمني يحتاج الى مزيد من الشباب المسلحين، وجمهور متحمس ذي حيوية مكبوتة.
- لابد والحالة هذه الذهاب الى الجامع لنرى ما حل بالحزبيين المأسورين، ومنه نحشد الشباب باتجاه هدفنا القادم، استخبارات القوة البحرية.
الشباب يدفعون الحزبيين صوب الجامع، ويتدافعون كأنهم في زفة عرس جماعي، وكأن مأسوريهم جنود عدو كافر، ينادون المؤذن:
- حجي فتحي أفتح الباب بسرعة.
ينزل عند رغبتهم.
- نعم، نعم، دقيقة واحدة لاجلب المفتاح.
يدخلون بهم سبعة، مربوطة أيادي بعضهم بحبال، وآخرين بكوفيات حمراء، كانوا يلفون بها رؤوسهم في نوبات الحراسة، وجوههم مصفرة، مذهولين، لا يقوون على اخراج الكلمات من حناجر ترتجف.
يصعد المنبر شاب غريب، بملابس نظيفة لم تتسخ بوحل الشارع، ولحية سوداء أزيلَ شعر حافاتها من الوجنتين بملقط حاد، حوله اثنان غريبان ايضا، يصغرانه بالعمر، مسلحان تسليحاً جيداً، توحي وقفتهما الى جنبه باهميته القيادية، وهم حماية قائد كبير، فزادوا بوقفتهم الانطباع بانه الاقوى والاكبر في هذه البقعة من أرض البصرة التي تتقسم محالها وجوامعها ومخلفات عسكرها بين الاقوياء.
حث على الجهاد بلهجة بصرية جنوبية واضحة المعالم قائلا:

- انه يومنا الذي انتظرناه، لقد انتهى الطاغوت الذي حكمنا وعذبنا بحكمه لعقدين من الزمان، لا بد من الاستمرار بالسير على طريق الجهاد للقضاء عليه في مهده، يختم خطبته القصيرة بعبارة الله أكبر.
تتعالى من بعده الاصوات مرددة، الله أكبر.
يدخل كريم وزميله المصلى، يلتفت حوله المؤذن، وباقي الشباب، يهتفون باسمه من أسقط مركز الشرطة والشعبة الحزبية.
يرد الغريب:
- بارك الله بالمجاهدين.
يصعد سلمتين من سلالم المنبر، يصعد اليه كريم، يهمس في أذنه بعض كلمات، وينزل ليقف مع الواقفين.
يكمل الغريب خطبته بحدة أشد من الاولى:
- أعمال الجهاد لم تنتهِ بهروب الكافر عبد الغني عبد الغفور، ولا باستسلام بعض الحزبيين هنا وهناك، علينا المواصلة حتى قطع رأس الافعى... الله أكبر.
يعطي الكلام الى كريم صاحب المقترح ليقول:
- أخوان، خطوتنا القادمة ستكون باتجاه الاجهزة الامنية التي تقاوم حتى الان، لا يمكن أن تتحرر البصرة ومنتسبو هذه الاجهزة يتنفسون الهواء، يؤيده الغريب بشدة، ويطلب فتح مكبرات الصوت، قائلا:
- الجهاد، الجهاد، سيسقط اللعين فقط بالجهاد.
يتداعى الجمهور من جميع الشوارع القريبة، حتى أصبح الجامع مركزا للحشد والتطويع، وأصبحت احدى غرفه محكمة ميدان شرعية، يُنَصَبْ الغريب نفسه رئيسا لها، يلتفت نحو المؤذن:
- حجي فتحي تعال أجلس الى جانبي أنت العضو الثاني، ثم يومئ لشاب يقف في الصف الاول متحمس في أن يكون العضو الآخر:
- نعم أنت، تفضل ستكون العضو الثالث.
ينزل المؤذن عند رغبته، لانه مرعوب مما يجري في جامعه الذي تعين فيه مؤذنا من قبل وزارة الاوقاف، ووكيلا للأمن، يزودها بالتقارير الدورية عن المصلين حتى يوم أمس، ختم آخر تقرير له بدخول مصلين الى جامعه من خارج محلة الجمهورية بينهم عسكريين هاربين من جبهة القتال.
تبدأ اولى المحاكم الشرعية للانتفاضة، لاولى وجبات الحزب المتهم كل أفراده بالكفر واضطهاد المواطنين الآمنين، يطلب من أحد مرافقيه:
- ناولني قائمة بأسماء الكفرة، نادي على الاول، ماجد علي سليم.
- تقدم الى الامام، أذكر اسمك ودرجتك الحزبية.
- نعم، انا ماجد علي سليم أمين سر الفرقة.
ذكر اسمه بفواصل بين الكلمات تؤشر شدة الارتباك، يلتفت رئيس المحكمة صوب الجمهور المرصوف في الداخل، يسألهم كشهود اثبات:

- هل تعرفون هذا الكافر.
يأتيه الجواب من كل الجهات:
- انه مسؤول فرق التطويع الخاصة بالجيش الشعبي في الحرب، هو من قاد المداهمات، وأعتقل وقتل طوال فترة الحرب، أنه مجرم، كافر، يستحق الموت، يلعن فعلته على الفور، يحمله مسؤولية الموت البائس لآلاف الابرياء في محرقة أفتعلها الحزب شقا لصفوف الامة.
يحكم باعدامه في الحال.
يتقدم المتبرعون وهم كثر لينفذوا الحكم، يسبقهم حميد جاسم، يطلب أن يكون المنفذ، وأن يكون التنفيذ بطريقته الخاصة، لانه أعدم شقيقه قبل أربع سنوات، تتداول المحكمة بالأمر، يحصل على الموافقة، يجلب مدفأة نفطية علاء الدين الانجليزية القديمة، يتركها مولعة لدقائق، يرش على غطائها قطرات ماء من سبابته اليمنى، ليتأكد بلوغها أعلى درجات الحرارة، يضعها جنب العمود الوسطي لقاعة المصلى، يجلب الرفيق اليها، يربط قدميه، ويديه جيدا، يجلسه عليها، يلف الحبل على جسده والعمود الاسمنتي، باحكم يحول دون قيامه من فوقها، ويخاطبه:
- إبق في مكانك هكذا حتى يحترق قلبك، مثلما حرقت قلب والدتي باعدامك محمود، يتلوى الرفيق من فوقها، يحاول بحركته التخلص من نارها التي طالت اليتيه، فيجد غير حميد، آخرين يشتهون فعل القتل تحت تأثير عدواه الجماعية... يمسكون به من كل جانب، يضغطون من الأعلى ليبقوه جالسا، ينفذ عقوبة الموت ببطئ.
المتهم الثاني يقف في المكان باشارة من الرئيس، يشهد الجمهور عند نطق الاسم انه ضمن فرق القبض على الهاربين من الخدمة العسكرية، يُلعن أيضا، ويُحَمل مسؤولية استشهاد آلاف من ابرياء الامة.
يُحكم بالاعدام.
يتقدم الثالث والرابع ثم السادس، وسط هتاف الجمهور المطالب بمزيد من الانتقام، التهم الموجهة واضحة تشملهم جميعا، فالحزب في العقدين التي حكم بهما العراق، مثقل باعمال جميعها تستحق الاعدام.
السابع بدرجة نصير، وقع ارضا حال نطق الاسم، قضى بالسكتة القلبية، لم يسلم جسده الغض من سبع رصاصات أطلقها احد المتبرعين الساعين الى الانتقام.
كريم وسالم ينشغلون بجمع المتطوعين، هدفهم استخبارات القوة البحرية، السيارتان الوحيدتان لا تكفيان لنقل المتطوعين، يتقدم رجل بلحية غزاها الشيب مبكراً، يطلب الانتظار لدقائق يجلب خلالها سيارة حمل كبيرة تابعة لمصلحة الموانئ، مؤكداً:
- انها سيارة هينو، وهي بعهدتي وانا سائقها الرسمي، وهذا يومها، خدمة للثوار.
يشد الغريب من ازر كريم وسائق السيارة، يخرج من حقيبة كان يحملها علم اخضر، يكلم كريم:
- ضع هذا العلم على السيارة التي تستعملها، لكي يفرق المجاهدون بينك وبين اتباع النظام.

تدخلَ سالم المعروف بانتمائه للمنطقة وكثر معارفه فيها قبل الخروج من الجامع، يسأل الغريب:
- من أنت؟. انك لست من أبناء الجمهورية!.
يضحك الغريب بثقة عالية، يؤكد:
- انا ابن الجمهورية وكذلك ابي، يقدم نفسه بصوت عال تملأه الثقة:
- انا علي بن الحاج مرتضى البقال في شارع عشرين، سُفرنا الى ايران والعائلة عام 1979، وانا في العاشرة من عمري، وقد استقر أهلي بعد التسفير في السيدة زينب بدمشق، وهؤلاء الموجودون معي هم أيضا من ابناء المنطقة، جميعنا مقاتلون تابعون لقوات الفرقان المعارضة للنظام الكافر، نعمل في هور الحمار منذ خمس سنين، لقد دخلنا منه الى البصرة فجر هذا اليوم.
يتعالى التصفيق والهتاف، وكأنه لم يفارقهم كل هذه السنوات.
يسمع المؤذن، القصة كاملة، يتبرع في أن يكون هذه المرة شاهد أثبات، تأمل أن تكون شهادته الميدانية أمضى وقعا من كتابة التقارير:
- نعم أنه ابن الحاج مرتضى، أنا أعرفه حق المعرفة.
يتعالى التصفيق ثانية يصحبه قدر من التكبير، يلتف حوله الجمع، كأنه من سينجز مهام التحرير.
البداية مريحة، فيها أمل قوي باكمال فعل التحرير، يؤشر الى أحد مرافقيه بتنظيم صفوف المتطوعين المجاهدين، الجامع سيكون المقر التعبوي، حتى ورود التعليمات.
سيارة الحمل تصل المكان مسرعة، تمتلئ باعمار مختلفة قبل وصولها الجامع، يعلق على بابها اليمنى علم أخضر، يصعد مجاهد من جماعة الفرقان جنب سائقها، يستلم سالم قيادة السيارة الثالثة، وكريم في المقدمة بسيارة أمين سرالشعبة الباترول، يتجهون جميعا الى القوة البحرية.
المنظر غير مألوف، سيارة الحمل لم تعد ملامحها معروفة من كثر المتعلقين بجوانبها، وآخرين لم يسعفهم الحظ بالصعود أو لم يجدوا مكانا للتعلق، يهرول بعضهم، يمتطى بعضهم الآخر عجلته الهوائية، كأنهم في غارة نهارية على مرابع قبيلة يناصبونها العداء عشرات السنين.
مهدي صاحب العربة الخاصة ببيع النفط، يحضر بها الى الجامع بعد سماعه التكبير والدعوة الى سقوط الديكتاتور، لا يرغب ان يكون بعيدا عن مجرى الاحداث، يحرر الحصان من العربة البطيئة في سيرها المعتاد، يركبه حاسرا دون سرج، يركله بكلتا قدميه، يغير به خببا ليجاري سيارة الحمل في سيرها غير السريع.
القوة البحرية ليست بعيدة، الامل بغنيمة من اسلحتها ومعداتها كبير.
الحصان هذا اليوم لم يُخلق الى جر العربة، خصصه مهدي للكر وكسب المغانم مثلما يفعل الاجداد.

لا احد يحرس الباب النظامي، ابريق الشاي مازال على المدفأة النفطية، كأن الحراس استشعروا قصد المنتفضين، فتركوا الباب مشرعة، لمن يريد الدخول، دخولها اسهل من ذاك الذي جرى في مركز الشرطة.
سالم يعرف مقر القيادة ومكان الاستخبارات، يعطي اشارة الانعطاف الى اليمين، يخفف كريم من السرعة، تتبعه سيارة الهينو.
المقر على اليمين، يؤكد سائق الهينو معرفته الجيدة بموقعه، ثم يلتفتُ الى البدن الخلفي ويكمل الحديث:
- لم يتبق معنا سوى القليل، لا يزيد عددهم عن العشرين.
يرد المجاهد الجالس بجنبه:
- لا تشغل بالك، أغلبهم حضر لكسب المغانم، ستجدهم يتكاثرون عندما ندخل المقر، حتى لا يمكنك التعرف عن الاماكن التي يخرجون منها، انهم لا يفكرون مثل كريم، ولا مثل علي وسالم، اليوم عندهم، يوم المغانم.
يرد السائق بثقة:
- لهم بعض الحق، فالغالبية معوزون عاطلون عن العمل، والبحرية كنز لا يستهان به لتعويض المال الذي يُفترض أن يأتي من العمل.
مقر القيادة اخليّ تماما قبل ساعة، لم يبق أحد من ضباطها والجنود، سوى ملابس عليها رتب عسكرية واضحة، تبعثرت بين الغرف والممرات، استبدلها أصحابها بملابس مدنية ليسهلوا على أنفسهم الاختلاط بجمهور ثائر وآخر غازٍ يسيرون معا في نفس الطريق وان أختلفت الاهداف.
مقر الاستخبارات البحرية يحترق، بفعل أصحابه لطمس أية وثائق تدينهم، ولابقاء سجل الوكلاء والمعتمدين بعيداً عن متناول الجمهور الساعي للانتقام، التفاتة تأتي بوقتها تُنجز تماما قبل هذا الهجوم بدقائق، لا احد باق في هذا المقر، الجميع يختفون بنفس الطريقة.
توقف كريم ومن بقي معه لالتقاط الانفاس والتفكير بالخطوة القادمة. وقال:
- مديرية امن البصرة قريبة من هنا.
- نعم انها قريبة، أجابه سالم ومن الضروري هدمها صرحا للظلم والاستعباد.
- المشكلة ياسالم لم يتبق معنا سوى القليل المؤمن بما نؤمن به، ومبنى الامن أكيد محصن، والموقف لا يحتمل الفشل.
- طيب دعنا نَعد الى الجامع، نتشاور مع الاخ علي، وبالمرة نحاول الحصول على دعم الشباب.

الجامع خلال الساعة التي استغرقتها الغارة على القوة البحرية، يصبح صالحاً كمقر قيادة، المجاهد علي يتحرك في أركانه بنشاط حثيث، يحمل جهازاً لاسلكياً، لم يسكت عن المناداة... الجالس على المنبر هذه المرة، رجل معمم، يكنى بالسيد، هو من يأمر والجميع ينفذون برحابة صدر بينهم علي.
تنتهي القوة البحرية قبل الوصول اليها، تصبح بعد النهب أرضا تصلح فقط لرعي الأغنام، كلام يُسمعه كريم للسيد، مؤكدا هدفهما القادم سيكون مديرية أمن البصرة، اذا ما سقطت والمخابرات، فان السلطة في البصرة تكون بحكم المنتهية، وستكون المدينة العظيمة محررة باذن الله، فيتلقى وزميله اشادة من السيد ومن المجاهد علي معا:
- بارك الله جهودكم، أنتم نعم المجاهدين
يلتفت الى علي:
- أخ علي، أرسل معهم ثلاثة مجاهدين لمعاونتهم في مهمتهم الجهادية القادمة، مع قاذفة صواريخ اربي جي 7، ستكون مفيدة في الهجوم على المباني الحصينة.
سيارات ثلاثة تتجه الى بناية مديرية الامن، المنظر هذه المرة مختلف قليلا، سيارة الحمل فيها ثلاثون شابا غالبيتهم لم يمسك بندقية من قبل، والسيارتان الاخريين، لم يزد الراكبون المتطوعون فيهما عن العشرين، عدد يشك بكفايته.
سالم يسأل كريم المحارب العائد توا من جبهة القتال:
- ما رأيك بالعدد، هل هو كاف للهجوم على بناية الامن؟.
- أنا مثلك أشك بكفايته، لكني أعتقد بأمكانية الاستفادة من الجمهور المنفعل مع أول خطوة نجاح نحققها في الاقتحام.
السير باتجاه الامن تبطؤه عوائق المارة المنتشرين بالشوارع والنهابة المحتشدين أفواجاً بانتظار خطوة اقتحام جديدة، يستثمرون فيها جهد الفوز بغنائم أكثر... دقائق لا تزيد عن العشرين تصل السيارات الثلاثة بحمولتها من الشباب المنتفض الى بناية الامن، يترجل الجميع قريبا من بوابتها الرئيسية.
يشرع كريم بتقسيم المتطوعين الى مجموعتين:
- المجموعة الاولى مع رامي القاذفة ستكون معي.
- المجموعة الثانية مع حامل الرشاشة الخفيفة مع سالم.
اطلاق نار خفيف من داخل البناية، يجعل بعض أفراد المجموعتين يتراكضون بعدة اتجاهات، والبعض الآخر القليل ممن خبر الخدمة العسكرية، يهرول صوب السياج في محاولة لاتخاذه ساترا يجنبه الاصابة.
كريم لا يأبه لما حصل، كأنه يتوقعه، يبدأ باصدار أوامر القتال:
- تراجعوا الى الخلف، خذوا وضع الرمي، صوبوا على الشبابيك العلوية.
- سالم ألتف بمجموعتك من خلف البناية، أبدأوا الرمي على الشبابيك الظاهرة.
أنت ترجل من خلف مقود السيارة، سأقودها بنفسي.

- كيف؟، أنا معكم.
- لا وقت للنقاش، ستفهم لاحقا، ترجل بسرعة.
- كاظم، أصعد بقاذفتك الى أعلى بدن السيارة، وجه أول صاروخ الى باب البناية الداخلية، حال نجاحنا باقتحام الباب الخارجية.
يصعد مسرعا خلف المقود، يتحرك باعلى تعجيل لمحركها المتهالك، يصدم الباب التي تنفتح صاغرة، يقترب أكثر، ينطلق اول صاروخ من القاذفة، يهدم الباب الداخلية، فاتحاً ثغرة في الجدار الكائن خلفها بقطر يزيد عن المترين.
يترجل كريم من خلف المقود، ينادي الزملاء:
- أدخلوا الان، علينا الاستفادة سريعا من قوة الصدمة التي أحدثها الصاروخ.
يتقدم افراد مجموعته، يتكدسون قريبا منه.
ينادي بأعلى صوته:
- أبتعدوا عن المكان الذي أنا فيه، تفرقوا خلف الجدار.
يعاود المدافعون عن البناية رميهم المكشوف من برج الحراسة الجنوبي، يشاغله بالرشاش الذي معه، ويعاود هو اصدار الاوامر:
- كاظم.
- نعم.
- اضرب مبنى البرج، بسرعة.
ينهدم البرج، بعد الاصابة المباشرة، فأصبحت الساحة الممتدة أمامه آمنه.
ينادي كريم:
- تهيئوا للاقتحام، لابد من القيام به الآن.
المعركة شرسة، ومن في الداخل يتحصن جيدا، يصر على مواصلة القتال بأمل ضعيف في النجاة، ومن في الخارج يصر على الاقتحام بمعنويات عالية، وخبرة قتال ضعيفة او معدومة، لغالبية المجموعتين.
صاروخ ثالث يوجهه كاظم الى الطابق العلوي يثير الارتباك في صفوف المدافعين، يوقف الرمي لاكثر من دقيقة، يستثمرها كريم في دخول البناية، يرمي رمانة يدوية هجومية، يتبعه افراد المجموعة، يتلقى القريب منه رصاصة في رأسه من ضابطٍ كان متخفيا بشكل جيد في غرفة الاستعلامات، يرد عليه كريم بسرعة، يرديه قتيلا في الحال.
الرمي الشديد يجلب انتباه الجمهور الذي احتشد بالمئات خارج سياج البناية، غالبيتهم من ذوي المفقودين على أيدي رجال الأمن، وجدوا في الهجوم فرصة للتفتيش عن ذويهم في سجن المديرية او في دفاترها السرية، أملٌ ضعيف، لكنه ممكن.
يحاول البعض الدخول، لم يستطع كريم منعهم، لاندفاع غير محكوم بقدرات السيطرة في نفوسهم او لهستيرية عادة ما تصيب البعض في اللحظات الاولى للانتصار، يندفعون جميعا بقوة اجسامهم.

الفوضى تعم المكان، رمي كثيف، يشتت صفوف الداخلين، يضعهم خارج البناية مصابين بالهلع الشديد، يستمر كريم في تنقله تحت الرمي من غرفة الى أخرى، يحضر سالم للمعاونة بعد تثبيت خمسة زملاء لمراقبة الجانب الخلفي.
المقاومة تشتد في جانب السجن، تحشد كل البنادق باتجاهها، يخرج اثنان بملابسهم المدنية مضرجين بالدماء، يُقتلان في الحال، لا مجال للاسر، ولا تأجيل في عملية القتل، اصرار من كلا الطرفين على حسم الموقف بقوة القتل.
رجال الامن، يدركون النتيجة مسبقا، يصرون على القتال أملا في تغيير الموقف ووصول نجدات من قوات عسكرية، لا يمتلكون اي اتصال معها، ولا يعرفون شيئا عن ثكنات لها، دخل بعضها الجمهور الغاضب انتقاماً من خسارتها الشنيعة في الحرب الخليجية الثانية، وطمعاً في اسلحتها ومعداتها التي استيبحت بكل أقتدار.
رجال الانتفاضة يدركون الواقع، يصرون من جانبهم على الحسم ايضاً، فمديرية الامن رمز معروف للظلم والبؤس والشقاء، وعمود قوي يستند عليه النظام، ينتهي بانتهائها اقتحاماً باسلحة المنتفضين، نصف ساعة من القتال الداخلي العنيف، ينهى ثلاثين رجلاً أمنياً كانوا متحصنين، وخمسة شهداء من المهاجمين، وسبعة جرحى بينهم سالم أول المنتفضين، ينتهى القتال بعد هذه الخسارة.
يصعد كاظم مع قاذفته الى أعلى البناية. يكبر:
- الله وأكبر، سقط الطاغوت... أنتهى وكر الشياطين... الله وأكبر.
مئات المتجمهرين المتربصين، يقصدون البناية ركضا، يدخلون الباب المفتوحة والشبابيك المهشمة، أوراق المديرية واضابيرها، وحواسيبها واسلحتها، ومعدات التجسس فيها لم تصمد امامهم عشر دقائق، باتت البناية بعدها بقايا هيكل تلتهمه النيران.
كريم، يشعر بالارتياح، تنتهي مهمة عسيرة فكر بها قبل ساعة من الان، لا يعرف الخطوة القادمة.
أخبارٌ تناقلها الموجودون تؤكد انتهاء فاعلية المخابرات الجنوبية، وكذلك منظومة الاستخبارت، الجمهور المنتفض يدخل بناياتها ويفعل بها مثلما فعل بالامن، المقرات الحزبية انتهت بالكامل، الان يتنفس الصعداء.

أستباحة مستشفى

- سالم، أين هي اصابتك؟ ... أنا قلق عليك.
- لا تقلق، انه جرح في الفخذ، مازال ينزف.
- أصمد، سنجد لك طبيبا في الحال.
- اين هو الطبيب في مثل هذه الظروف؟.

المستشفى العسكري ليس بعيد، يتوقفان في مواجهتها، شخص يحمل كرسياً لطبيب اسنان، آخر يتشارك مع أخيه في حمل سرير مخصص لجرحى قتال، عربة يجرها حمار تحمل جهاز اشعة، أطفال يلعبون بادوات تشريح، صدريات أطباء وممرضين متناثرة في كل مكان، بضاعة عرف تجار السلب انها غير مربحة، فتركوها في الممرات وعلى الارصفة تدوسها الاقدام، طوابير تدخل متوجسة وأخرى تخرج باسمة بما تحمله من غنائم الطب المطلوب اعادته الى ايام الحجامة والكي بالنار.

تَدمعُ عينا كريم، يتخيل هذه المستشفى التي أنقذته يوم أصيب بشظية في بطنه عام 1987، يتذكر اسماء الجراحين المرموقين، يقلق عليهم ثروة بلد لا يمكن تعويضها، يضع رأسه على مقود السيارة، يضربه بشدة، يصرخ باعلى صوته:

- لماذا؟.

يتحرك مبتعدا عن منظر لا يسر عدواً ولا صديقاً، يحاول سالم تهدئته قائلا:

- الدكتور حميد طبيب عام، بيته في شارعنا، يمكننا مراجعته، فهو معروف بتعاونه ومساعدته أهل المنطقة... دعنا نتوجه اليه في الحال.

الدكتور حميد، مذهول بوقفته في الباب، يتفرج على أحمالٍ تنقل الى البيوت، وأعلامٍ تُعَلق على البيوت، مصدوم بما يجري، وهو المستقل غير البعثي المعروف بوطنيته ومساعدته الفقراء من أبناء حيه العريق.

يلمح سالم قادماً، يبادره بالقول:

- نعم سالم ما الآمر؟.

شاهدَ الدم يغطي السروال، لم ينتظر الاجابة، سارع بفتح الباب قائلا:

- أدخلوا بسرعة.

لم يسأل عن سبب الجرح، فأمره معروف، ومسألة اخفائه حدثا عرضيا لسالم المشارك في الهجوم على الشعبة الحزبية والامن أصبح غير ممكنا، بعد تلذذ الجمهور بنقل الاخبار الخاصة بالانتفاضة بمتعة الفخر المعهودة وزاد على حقائقها وقائع تقترب من الخيال، يكتفى بالفحص ثم التنظيف، ومن بعده التضميد، يختم لفة الضماد الاخيرة بالقول:

- هل ما يجري صحيح؟. جعلونا ندمر بلدنا بأيدينا، الذي يجري الآن حرام، الله يستر من مستقبل يبنى على الحرام!.

نصف يوم قتال شاق، كأن وقعه دهرا من الزمان، احداثه كثيرة، خطيرة، ستطال آثارها آخر الزمان...الشمس مازالت مشرقة، والسماء صافية، ولفحة برد الخريف اللذيذة باتت واضحة.
بيت الحاجة رضية في القريب، الاطمئنان عليها واجب، بل حتمي بعد تأدية المهمة التي اعتقدها ردا على مقتل وليد وفقدانه أعز صديق.
باحة البيت مكتظة بنساء المحلة، القادمات للعزاء، مناسبة فريدة، لتداول أحاديث نصف النهار والتفتيش عن أسباب الوفاة، ومكان الدفن، واحتمالات جلب الجثة، وعن صديق اوفى بعهده بطلاً في الانتقام، وغيرها اسئلة تلهب قلب الام المكتوية بنار الحرقة، الطيبة الحنونة، المثالية في كدها المتواصل لتربية الابن والابنة الوحيدين لها في حياة غادرها الاب منتصف الثمانينات في معارك شرق البصرة.
الموقف مثير بالنسبة الى كريم عند دخوله البيت حاملا انفعالات وقلق نصف النهار، يتعالى بدخوله العويل، بات الجميع يعرفون سيرته صديق وليد القريب، البطل الذي اسقط مركز الشرطة والشعبة الحزبية، ومديرية الامن، أخبارها وصلت قبل وصوله البيت، تخجله همسات النسوة الحاضرات، يؤكد أخذه الثأر ممن تسبب في مقتل أخيه وليد، ينحني على رأس الخالة رضية يقبّلها بدوافع الام.
تبكي بحرقة ونهنهة متتالية، فتأخذه في الحضن، وتشم فيه رائحة العزيز بطريقة اعادتها الى وعيها، لتبدأ نوبة نواح، كأن العبرات في داخلها قد تحررت من الاحتباس، فاطلقت بتحررها كل الانفعالات المكبوتة منذ الصباح:
- الهي يحفظ شبابك، ولدي العزيز، اتركنا لقدرنا، اذهب الى أهلك في الناصرية، والدتك تنتظرك مثلما انتظرتُ وليد ايام بلياليها، لم يغمض لي جفن، كأني عالمة بالنهاية، لا تزيد وجع أم انتظرت طويلا، ولا داعي للبقاء في هذه البصرة التي شعلنا فيها ناراً، اخاف من حرقة سعيرها... أنت ما تبقى لنا في هذه الحياة. الجميع في هذا الحي الفقير يتكلمون عنك، والدنيا ليست آمنة، عليه لا اريد بقاءك يوم آخراً، ولا ساعة أخرى، تعودّتُ ان لا أطمئن لردود فعل الماشين في الظلام بعد منتصف الليل، فقررت انهاء العزاء هذا اليوم بعشاء على روح المرحوم، لقد حرمونا تأدية العزاء، تباً لدنيا رضعنا ألمها صغارا، ومضغنا بؤسها في الكبر، تباً لحياة تشهد فيها موت الولد الوحيد مدفونا في مكان بعيد، آه من عيش بلا ولد وحيد... اترك البصرة يا ولدي لتقلل وجعي.
تعاود تقبيله مرة أخرى، كأن وليد دخل البيت من جديد.
فرد عليها:
- خالتي، أمي العزيزة، سأذهب لاقلل وجعك فقط، سأذهب بعد انتهاء واجب العشاء الخاص بالمرحوم، سأترك البصرة، ساعود اليها في القريب، ليس لي في هذه الدنيا سواكم، وليس لكم سواي، ساغادر بعد العشاء، أطمئني سانفذ رغبتك لاقلل وجع أحسه يسري في جوفي العليل.
الابنة المدللة أمل بنت السادسة عشرة، لم يمض على اشتعال جذوة شبابها وقت طويل، تقف جانبا منطوية على ذاتها الموجوعة، يقطر منها الحياء، يرهقها البكاء بصوت مدلل

ناعم، ترك على خدودها اللطم المستمر منذ الصباح، بقعاً حمراء، ضفائرها انفكت، تناثر شعرها بغير انتظام، كانت تنتحب بحرقة، تغسل دموعها الآلام، لا تستطيع الجلوس في مكانها... تتجه الى غرفة العزيز، كأنها تفتش عن شيئاً ثميناً او تتفادى النظر الى كريم، لا تفرق بين الحالتين، تدخل مسرعة، وتخرج مذعورة، تستمع الى توسلات امها فيما يتعلق برحيل كريم، تعبر عن تناقض الافكار والتمنيات بصرخة جلبت انتباه الحضور من النسوة اللواتي يتعاطفن معها، أخت الشهيد.

بيت الحاجة رضية

الذهاب الى الناصرية، هذا اليوم وفي ليل يتحرك فيه المنتفضون ورجال الحكومة، وقطاع طرق، أمر صعب، لا وسائط نقل ميسورة، ولا جسد يتحمل أعباء المشي يمكن الاعتماد عليه.

يدنو كريم من سالم ليسره:

- السيارة عائدة الى الحزب، كيف لي الذهاب بها الى الناصرية؟. لا علم لي بتطورات الموقف على الطريق، كما ان الوقود فيها قليل لا يوصلها الى هناك.

يرد سالم بقدر من العصبية:

- كأنك تتكلم عن نفسك، بعد أن تعاهدنا على السير معا.

ان قرار الذهاب الى الناصرية وان كان يخصك ومتروك أمره لك وحدك، لكني سأرافقك وان كان مشيا على الاقدام.

لقد مشينا من الكويت الى البصرة، فما المانع أن نمشي الى الناصرية.

يلتفت اليه كريم بالقول:

- الله سبحانه عوضني بك أخاً وصديقاً بدلا من المرحوم وليد، أدعو من الله أن يديم الاخوة الى الابد، أنا أشعر كأني أعيش معك أخاً من زمان.

فيردعليه:

- كريم دعنا من المجاملات، سأذهب الى أهلي لاطمئنهم عن خروجي من السجن، وأعود اليك لنلتقي في بيت الحاجة رضية، ومنها نتوجه الى الناصرية هذا المساء حتما.

- سأنتظرك.

الاهل ينتظرون، عارفين بكل التفاصيل، عاتبين على التأخر عن طمأنتهم منذ كسر السجن والخروج من خلف قضبانه الحديدية.

لكي يقطع عليهم سلسلة العتب، قال:

- اسمعوني جميعكم، أنتم أعز ما أملك في هذه الحياة، لا أريد الابتعاد عنكم، أحداث اليوم، حملتني مسؤولية غير طبيعية، واطلاق سراحي من المركز على يد كريم، وضع ديناً في ذمتي، وأنتم أدرى بمن يدخل سجن البعث لا يخرج منه سليماً بأي حال من الاحوال، لا اريد الابتعاد عن الموضوع بالشعارات الوطنية، لكن الوطن فعلا محتاجنا كشباب هذا اليوم، عليه تحمّلوني، وتحمّلوا غيابي عنكم ربما لأيام.

يتدخل الاب:

- نحن كنا يائسين من رؤياك ثانية، ونعرف أنك عنيد، والذي تريده تتجه الى تنفيذه، وان كان في آخر الدنيا، اتكل على الله، وسنكون بانتظارك، عارفين هذه المرة أنك ستعود لنا باذن الله.

- مع السلامة جميعا.

يصل بيت الحاجة رضية، يجلس في السيارة منتظراً كريم، وبندقيته جانباً، يشعر انه قد تعلم الكثير من الدروس بمرافقته هذا الصديق الشجاع، لهذه الساعات الستة من نصف النهار المليء بالاحداث.
الساعات القليلة الماضية حملت في جعبتها الكثير، الاجهزة الامنية تساقطت، انتقل من تبقى من ضباطها على قيد الحياة الى بيوت معدة كمخابئ مسبقة، عملهم الامني تحول سريعاً الى الاختباء والترقب، بانتظار الخطوة القادمة تبعاً لتطورات الموقف.
القيادات العسكرية داخل المدينة أخلت مقراتها، غادر غالبية ضباطها الكبار باتجاه المقرات العسكرية الموجودة خارج المدينة، وغادر غالبية الضباط الشباب الى محافظات أخرى بينها بغداد.
الجامع الرئيسي في محلة الجمهورية، يشهد كثيراً من التطورات، شباب يتواصل قدومهم من الاهوار، وأجهزة اتصال تنصب وصلاتها أعلى المنارة، وسيارة وقود حوضية مملوءة من بقايا موقع البصرة في معسكر محمد القاسم، تجلب لتستقر جوار الجامع، يصرف الوقود منها بورقة موقعة من السيد... المجاهد علي يصبح الرجل الثاني في السلم القيادي للمقر، لا أحد يعرف طبيعة عمله وجهة اتصاله، المهم انه من قوات الفرقان، والأهم انه مع الآخرين يسعون لاسقاط الديكتاتور.
كريم الذي صحا على نشوة الانتصار على الشرطة، يجد في داخله رغبة ملحة لزيارة الجامع، عسى ان يستفهم شيئا يفيده في رحلته المجهولة الى الناصرية، يعيد المجاهد علي تقديمه الى السيد، بطلا قائداً جماهيرياً، شجاعاً، يعرض عليه الانضمام الى قوات الفرقان، فيتعكز في رفضه على ضرورة الذهاب الى الناصرية، ليداري قلق أهله في هذه الظروف الصعبة.
يبارك السيد خطوته قائلا:
- أقدر نيتك الذهاب الى الاهل فالله سبحانه وتعالى أوصى بالاهل خيرا، وزيارتهم واجب شرعي، ثم يخرج ورقتين، الاولى لملأ خزان الوقود لسيارته الحزبية، والثانية لعدم التعرض اليه أثناء التنقل على الطريق مؤكدا قوله:
- أملأ خزان السيارة بالوقود الكافي للعودة، نحن بانتظارك، لأننا نحتاجك، والورقة الثانية لعدم التعرض قد تحتاجها، قواتنا الآن منتشرة حتى الكوت، وهم يعرفون الختم جيدا.
فيجيب كريم:
- شكرا لك سيدنا، سأعود ان شاء الله في القريب العاجل، والتساهيل من الله العلي القدير.
العشاء الذي شارك وصديقه سالم في تهيئته ختاما لعزاء المرحوم وليد ينتهي مبكراً بدفع من الحاجة رضية، التي تحاول الحث في الاسراع بالتوجه الى الناصرية.
النسوة المعزيات يتركن المكان، وكذلك الحاضرين من الرجال، سالم ينظر في ساعته، يظن أن صاحبه قد تأخر، لكنّه لا يريد ازعاجه فموقف التعزية صعب، والوداع أصعب.
الحاجة تمسك كريماً من يده بقوة، ترجوه وتتوسل اليه أن يحافظ على حياته:
- انك الباقي لنا في الحياة... تقبله من جبينه مع تأكيد:

- ابني العزيز، بعد ما أوصيك على نفسك.
يعيد تقبيلها من رأسها، قائلا:
- أمي الحبيبة، انت لنا العّزاء في هذه الحياة، حافظي على نفسك وعلى أمل انها أمانة لديك، انتم أهلي وأحبتي، سأعود لاطمئن عليكم مهما كلف الأمر.
أمل التي غادرها البكاء لفترة أنشغلت فيها بالتعزية، وتقديم العشاء، خرجت من غرفتها، تسير بتأن، كأنها في سيرها البطيئ هذا، تحاول أن لا تخدش الارض التي تسير عليها. أتكأت بكلتا يديها الرقيقتين على حافة الباب، وعاودت البكاء بشدة.
كريم الذي شاهدها آخر مرة صبية، تلعب مع زميلاتها في باب الدار، فكر في لحظة الحزن هذه، قائلا بصوت غير مسموع، انها لم تكن أمل أخت المرحوم التي أعرفها، فأحسَ ساعتها دفقة نور قد سرت في جهازه العصبي، شعر اثرها بالخجل من نفسه، فأغمض عينيه خشية الاستمرار بالنظر اليها وهم في موقف حزن، لا يبيح النظر تحت أي سبب من الاسباب.
هي أيضا ترى كريم من هذه المسافة القريبة لاول مرة، وفي ظروف تتلاطم فيها المشاعر بين الحزن على عزيز ذهب الى الابد، وبين الفخر بصديق له أصبحت سيرته شجاعاً وفياً على كل لسان، زاده قيمة في نظرها موقفه الشجاع مع والدتها في الهجوم على المركز، نفذت نظرته الى قلبها الذي يأكله الهم، أحست انها وسط هذا الحزن تنتظر تكرارها، وأحست في داخلها خوفاً عليه من ليل كئيب... إحساس لم تدرك غاياته البعيدة، أو في الواقع لم تفسره الا في اطار رد الجميل، لما قام به من أخذ بالثار واكمال ترتيبات العزاء، ومع هذا خجلت هي أيضا من احساسها الغريب، فبقيت في مكانها شاحبة الوجه كأنها لا تأبه للوداع.
كريم يودعهم بحرارة عاشق. يودع حبيبته ذهابا الى المجهول، يسرع خطاه نحو الباب، لم يلتفت الى الوراء لكي لا يشاهد الدموع في مآقي، يحس أنها تريد منه البقاء.

ظلام مخيف

يخيم على طريق الناصرية السريع سكون غريب، ظلام دامس ينتشر على طوله كرائحة الاوراق المتسخة بعد هبوب العاصفة، سماؤه تغلفها غيوم سوداء زادت من شدته، وجعلتها سماء كأنها لُفت بجناح طير عملاق، غطى منطقتها وما تبقى من العراق.
القسم القريب من خطوط القتال التي خطها الاعداء القادمون من الغرب، تتجول في محيطه أشباح عسكرهم، لا يأبهون لمن يتخيلهم مدججين بسلاح فتاك.
كريم الأحسن حظا من بقية أصدقاء ماتوا باسلحتهم كمداً لا يعير وجودهم أي أهتمام، بعد أن خَبرَ في المواجهة الميدانية، رغبة عند الزملاء في التوجه صوبهم طلباً للنجاة... وجودٌ بوجه عام لم يعد عائقا لمسعاه في الوصول الى موطنه الناصرية، وإن آمن وزميله بالاشباح.
موحشٌ، خالية سماؤه من أسراب طيور، أعتادت التحليق مهاجرة من أواسط روسيا في مثل هذه الايام.
حُفرٌ متفرقة كونتها قنابل الحلفاء ...الاعداء، وحدها تؤخر المسير.
الحراس العراقيون لهذا الطريق الدولي السريع، ينسحبون شمالا، مشغولين بدعوى النجاة، وقائدهم الاعلى مشغول أيضا بكيفية النجاة، يخيمون بعيدا عن نصفه الاول، تحاشيا للاشباح، وربما استعداداً لجولات يقتصر رصاصها على الصدور العارية للابناء، يملأون نصفه الثاني مفارز مدججة بالسلاح، وما تبقى من دبابات الحرس الجمهوري الخاص، يقيمون على مساربه السيطرات، لا يَنفذُ منها كريم وزميله وان تسلحا بالجرأة والشجاعة ونباهة الاعذار.
العودة من حيث المجيئ، مع خيالات أشباح الاعداء، وأدعية الأمهات، خيار يحول دون تقديم أنفسهم لقما سائغة لمن يريد تسجيل الانتصارات على الابناء، لانعاش معنويات الرئيس، والحصول على مكرمة منه قائداً لا يدانيه في مجالها رئيس.
لعبة حرب هذه، طرفاها الابناء والاسياد، مسرحها متعدد الادوار، مشاهدوها نزلاء سجن بلا اسوار، تزيد من الاصرار على الوصول الى الاهل، الأمل الباقي في حياة، ضاقت بها الخيارات والامال.
يقطع كريم فترة صمت عابرة بالقول:
- لا فائدة من الاستمرار بالسير في هذا الاتجاه، الطريق خطر، لا يمكن أن يفلت أحد من قوات الحرس الجهوري التي تمركزت على نصفه الثاني.
- تلك هي دبابة تي 72 يظهر ضياء السيارة العالي علامتها الحمراء الخاصة بهذا الحرس.
يجيب سالم:
- والحل.
- العودة الى البصرة، ومنها أخذ الطريق العام الى العمارة فالناصرية، وان كانت المسافة أطول.

يؤيده سالم بالقول:
- صحيح، لنعد والله معنا.
المسلك الثاني الى الناصرية من البصرة، يمر عبر العمارة، يتبادل السيطرة على بعض أجزائه عسكر الجيش النظامي والمنتفضين، وقطاع طرق اختصوا بفن التسليب، يتقاسمونه حسب قوة السلاح الممسوك بأيادي سمراء، ونوايا مبيتة في عقول البسطاء، السائرون عليه، القادمون من شماله، يؤكدون تقاسمه انتصافا بين الفرقاء، أخباره تنتشر سريعا بين المتعطشين الى سماع الاخبار.
مدينة الهارثة القريبة من البصرة، يدخل اهلها سجل الانتفاضة الموسومة بشهر شعبان، سجلٌ عامرٌ بالاحداث فُتح رسميا هذا الصباح، يخرجون الى الشارع، يتمردون على السلطان، يهتفون بسقوطه والحزب الداعم لوجوده، معهم أهالي الدير، يسيطرون سوية على ناقلات اشخاص مدرعة وثلاث دبابات من الرتل العسكري العائد من الكويت الى فرقته المدرعة السادسة التي تأخذ من المنطقة ثكنة لها، يستخدمونها لسد الطريق واقامة نقاط سيطرة بعد نفاذ عتادها، رميا في الهواء، تُشعل اطارات قديمة في محيطها، علامة مميزة للتمرد وتدفئة بالمجان، يُفتش جميع المارين بها عنوة أو بالتراضي، فالامر بالنسبة لهم سواء، يترجل المشكوك بهم، يحاكمون ميدانيا وينفذ الحكم اعداما في الحال لمن ينتسب الى الاجهزة الامنية وكبار البعثيين.
موقف حرج لمن يمر على هذا الطريق. النفاذ منه لثائر مثل كريم ليست مشكلة، وهو القادم من بصرة عدّها العالم هذا اليوم شرارة الانتفاضة ومنبعها الحصين. تحية ثوار يمسكون عصي وبنادق، وهراوات، واشادة بيومهم وجهدهم العظيم، يكفي لمرورٍ حافلٍ يصحبه هتاف، ورفع علم اخضر على باب سيارته كفيل بالتصفيق وتحميد السلامة، ومزيد من الهتاف.
المشكلة ما بعد الدير، الفرقة المدرعة السادسة تقيم نقاط سيطرة على الطريق، تشدد أجراءات العبور، تتسلم أوامر صريحة بالتعامل الميداني الفوري مع المشكوك بهم، أقله الاعدام، لكنها لم تعدم أحدا كما يشيع الثوار، تقوية لمعنويات زملائهم أو تورية لجر العسكر الى الانتفاض، لا أحد يُقر الحقيقة في مثل هذا الايام التي تحفظ كل دقيقة من زمنها سراً، ولا احد يفرض أمراً على الثوار في هذا المكان الذي يعدونه ملكاً لهم وحدهم فيه يقررون المصير، يفرضون الامر الواقع، هكذا هي قوانين الثورات بداية الحصول.
مجاهدو الهور لم يصلوا بعد، ليفرضوا رؤياهم وقوانينهم، وكبار القوم غير قادرين على فرض الانتظام، هم يقررون، جميعهم يقررون، يأمرون، يفتشون، يفعلون، يكرون ويفرون.
عسكر الفرقة المذكورة، يزيدون أجراءت التدقيق في أماكنهم، بعد مقتل مدير الهندسة العسكرية ومجموعة ضباط كبار قريباً من الجسر العسكري المنصوب لعبور الارتال إعداما من قبل مجهولين، لا أحد يستطيع الصاق تهمة القتل بثوار الانتفاضة ولا بمتسللين أو بمنتقمين.

آخر سيطرة للثوار تُحَذر سالكي هذا الطريق الاقرب الى مدينة العمارة بينهم كريم:
- الاستمرار بمواصلة السير على هذا الطريق مجازفة غير مضمونة، كلام يدفع كريما الى التعليق:
- يعني لا أحد يتحرك عليه.
- هناك من يتحرك ذهابا ومجيئا، لكن على مسؤوليته.
- هل العسكر على الطريق من الجيش أو من الحرس الجمهوري.
- انهم من بقايا الفيلق الرابع، يتجنبون الاحتكاك بالجمهور، لكنهم يدققون بالهويات.
نقاش جاد عن سبل النفاذ المتاحة وتفادي المجازفة، يغلقه الثوار بالتأكيد على ضرورة عدم المرور على الطريق بهذه السيارة الحزبية، يفتحه خالد، الصبي ابن الرابعة عشرة من أهل الدير.
يتقدم خطوات من أصحاب النقاش، يقول بحماس:
- عمي ليس كل الطرق مغلقة، هناك طريق ترابي محاذي للنهر، جئت عليه قبل قليل بدراجتي هذه، لا يوجد فيه أي عسكري، وأزيدكم علم أن الجيش موجود على الطريق العام فقط، حول سيطرات نصبها حديثاً.
- (كفيلكم الله)، لا أحد من الجنود يبتعد عن الطريق العام لعدة أمتار، خاصة في الليل، أنا مستعد للسير أمامكم بعجلتي هذه، أوصلكم الى الشارع الذي تنتهي فيه السيطرات وأعود.
يلتفت كريم الى احد الثوار في نقطة السيطرة التي يديرها المنتفضون:
- هل ما يقوله صحيح؟.
- نعم صحيح.
- طيب، تعرفون هذا الولد، يعني أمين، لا يورطنا، نخشى أن نجد أنفسنا بحضن الرفاق.
- لا، أطمئنوا من هذه الناحية، فأبوه معروف، كان سجين الامن العامة قبل سنوات، هو في العادة لا يطيقهم.
- ما شي لنتكل على الله.
- في أمان الله.
ينجح الصبي عبد الحسين في الاختبار الصعب، يوصل الحالم برغيف خبز حار وكوب شاي من يد الوالدة الحنون قبل انتصاف الليل الى ذاك الطريق ما بعد السيطرات، ينجح كذلك في العودة الى حضن الثورة سالماً على دراجته مع مسدس أهداه سالم، لأصغر منتفض أثبتت التجربة انه شجاع.

إعدام جنود

مدينة العمارة، تعيش ليلتها كما عاشت البصرة يوم أمس، أخبار التمرد والانتفاض والفرهود، والدخان المتصاعد من الدوائر والمقرات، تصلها من عسكر يمرون بها ومواطنون يعودون اليها، محبطين من عدم العثور على اولادهم المفقودين، وانتقادات لاذعة توجه للدولة علنا، ولرئيسها بالتحديد كذلك في العلن.
عشائر باتت تهجم على بعض المقرات العسكرية شبه الخاوية. مقاتلو الاهوار يسيطرون على جميع طرقها والممرات التي خبروا خرائطها في ذاكرتهم باتقان، وشباب ليسوا من سكنة العمارة يدخلونها مع آخر النهار، يتوزعون على بيوت محددة مسبقا، بقصد ايقاد شعلة انتفاضة تلحقهم بالبصرة التي تناقلت الوكالات العالمية أخبار السيطرة عليها تماما مع ساعات المغيب.
أمن الفيلق الرابع يلقي القبض على عشرة جنود، وصلوا المنطقة مشيا، لايقوون على الاستمرار، كانوا قد جلسوا على حافة طريق فرعي لاخذ استراحة تعينهم على مواصلة المسير، يُعتقلون بتهمة المشاركة في الانتفاضة، يُقسِمونَ أنهم ليسوا من بين المشاركين، ولا نوايا لهم بالمشاركة. يستنجدون بالرئيس. يستغيثون بالحزب القائد. يصيحون باعلى اصواتهم:
- نحن من بين المنسحبين، لقد تهنا عن وحدتنا لواء المشاة الرابع والاربعين، لا علاقة لنا بما يحدث، ارسلونا الى وحدتنا، لنحاكم فيها اذا ما كنا منتفضين، واذا لم تعرفوا مكان لوائنا ارسلونا الى الاستخبارات العسكرية في بغداد، هي الاقدر على التأكد من نوايا العسكريين.
يجيبهم الرائد آمر المفرزة:
- أسكتوا خونة، عملاء. يقرأ عليهم قرارا ميدانيا بالحكم على جميعهم رميا بالرصاص.
تتعالى اصوات الاسترحام والاستغاثة من جديد.
يقف شاب منهم يستهجن الحكم، يهتف بأعلى صوته:
- يسقط صدام، يحاول الاستمرار بالهتاف واخراج المكبوت المؤلم من داخله، تمنعه رصاصة جاءته من الرائد أسكتته الى الابد، أعقبها رصاص أنهمر على جسده من باقي المنتسبين، خر مضرجا بدم يفور من فوهة بركان.
يتسابق أفراد الامن باطلاق الرصاص عشوائيا على التسعة الباقين، يوجه ثلاثة منهم بنادقهم بالصدفة الى جندي سيئ الحظ من التسعة كان غير موفق في محاولته البوح بكلام ما، وكأن دافع خفي يدفعهم الى هذا الأسوء حظا، وكأن محاولته الكلام بهذه الطريقة، انفعالا غير موفق في مثل هذه المواقف الحرجة التي لم يتمكن فيها ضابط الامن من قرائته انفعالا يعبر عن صرخة هستيرية لهاجس الخوف المقهور.
يكمل الرائد مهمته بالقول:
- ارفعوا جثثهم والقوها في النهر.

يَحملُ الجثة الواحدة أثنان من المنتسبين، تلقى في مياه النهر الجاري، قرابين فدية تقدم من أجل الرئيس، ولردع الآخرين دون المشاركة في استهداف حكم الرئيس، لا مجال للتفريق بين الشك وبين اليقين، في هذه الايام الحرجة. الاخافة من وجهة نظر القيادة ضرورية، وان قُدم المزيد من القرابين. الشعب العراقي مشروع قرابين دائم كما هو اعتقادها الراسخ على الدوام، ثم ان الردع بحد ذاته مبدأ حرب يتقنه رجال الامن والعسكريون من أبناء هذا الجيل الذين امضوا جل أعمارهم يقاتلون في ميدان الحرب، كما يؤكد العميد ضابط ركن الامن المخول بكل الصلاحيات.

مدينة العمارة ليلا لا يمكن دخولها لمن لا يحمل بنديقية ورسالة توصية، ومع هذا فالسير في شوارعها حتى المساء محفوف بالمخاطر، لان الحزب وباقي الاجهزة الامنية موجودون، يتخبطون في عمليات القتل العشوائي، الطريق الأبعد عن سيطرة الدولة هو ذاك الترابي المار بالاهوار، لابد من المخاطرة، بالتنقل عليه، وتجنب الخوض بمجازفات الدخول الى العمارة.

يبدأ كريم الكلام بعد صمت:

- لقد تجاوزت الساعة الحادية عشر ليلا، لن ننعم برغيف خبز حار وكوب شاي من يد الوالدة، لانها تغفو مبكراً، وأنا لا أفكر باقلاق منامها عند انتصاف الليل.

يجيبه سالم:

- لندخل الهور، ونختار فسحة بين القصب، لنركن فيها السيارة، وننام داخلها، ونكمل مشوارنا عند الصباح.

- هذا مستحيل، أنت لا تعرف أهل الهور، أنهم ينشطون ليلا، يشمون رائحة الاغراب من بعيد، اذا ما عثروا علينا ونحن في وضع الاختباء، ستكون كارثة، لن يصدقوننا وان أقسمنا بكل ما موجود من أيمان في هذه الدنيا.

- اذن نواصل المسير والله الحافظ.

- هذا هو الصحيح، سنصل الى الناصرية حتما.

- قُل ان شاء الله ياشيخ.

- ونعم بالله.

الظلام يزداد شدة مع تقدم الوقت، وسيارة الباترول البيضاء هي الوحيدة على هذا الطريق الذي يتلوى وسط الهور مثل أفعى البحار. أطراف القصب النابت عند سطح الماء القريب من حافاته تحجب النظر، وتزيد من وحشة السير عليه. اطلاقات نارية متفرقة على بقايا نقاط حراسة تركها اصحابها، وانسحبوا عصر اليوم تبطئ السرعة، وكذلك البلل الباقي من زخات مطر عابرة يزيد من هذا البطئ المثير للوحشة، الموقف لا يخلوا من قلق يستنزف الذكريات، ويبدد الافكار المتبادلة بين صديقين لم يمضِ على تعارفهم خمسة عشر ساعة، كأنها خمسة عشر عاما.

الظلام والقصب العالي القريب يحصر ضياء السيارة بحزمة ضيقة توصله مسافة ابعد باتجاه الامام، والهدوء غير المسبوق يُسكتهما لحظة عن تبادل الكلام.

يتدخل سالم منبها:

- هناك اشخاص على الطريق.
يخفض كريم السرعة قريباً من الوقوف.
- أعتقد أنهم من عشائر المنطقة، خرجوا بقصد الانقضاض على مفارز العسكر ونقاط الحراسة أو لاقتناص الفرص، لا أحد يعلم مقصدهما في هذه الساعة.
يتحرك سريعا لوضع العلم الاخضر في مكانه أعلى المرآة الجانبية، جواز مرور في مكان اختفى فيه العسكر عن الانظار، لا مجال للاستدارة عكس الاتجاه، ثم ان الوقوف فيه نسبة نجاة تفوق التراجع، أمام أربعة رجال يشهرون سلاحهم صوب الضياء العالي للسيارة الحكومية.
القاء السلام بلهجة يتقنها كريم لاهل المنطقة من طفولة عاشها بالجبايش، تخفف من صولتهم. يردون السلام بعصبية. يوجهون فوهات بنادقهم صوب كريم وسالم في آن معا، وقبل ان ينطقوا بكلمة أخرى غير السلام، بادرهم كريم بسؤال يعرف أهميته:
- يا جماعة الخير أين مضيف الشيخ راضي.
الشيخ المذكور يعرفه كريم، شيخ عموم الجويبر، ويعرف أن لا أحد يتجرأ على التجوال في مناطقه مسلحا دون الانتماء الى بطون عشيرته الممتدة على طول الهور وعرضه.
ينزلون اسلحتهم حال سماع اسم الشيخ.
يتقدم أثنان صوب كريم الواثق من نفسه، يسألونه:
- وماذا تريد من الشيخ في هذا الوقت المتأخر من الليل؟.
الشيخ راضي يقصده كثيرون من داخل الهور وخارجه، لصيته المعروف بعمل الخير.
يستغلها كريم قائلا:
- لدي توصية من السيد في البصرة.
يمد يده في جيبه، يخرج الورقة التي كتبها السيد في جامع الجمهورية دعما لموقفه عند المجاهدين، ممهورة بختم واضح، لا يميز تفاصيله المسلحون الاربعة، لانهم أميون لا يفقهون الخط، وبعد أن أطمأنوا له سألوه:
- ما أخبار البصرة؟
- انها بخير، انتهى فيها حكم الظالم، وفر البعثيون، وسيطرنا على كل المقرات الحزبية والحكومية.
يجيبون:
- أهلا بكم. من أي عمام أنتم؟.
بادر كعادته في الرد السريع الذي لا يعطي مجالا لمن يسأل بالتأويل:
- نحن يا ابن العم من آل ازيرج.
عندها أزدادوا اطمئنانا لتحالف هذه العشيرة مع عشيرة الشيخ راضي.
بادرهم بعرضوجهة نظره:
- سنحاول ايصال الرسالة الى الشيخ، ثم نتجه الى الناصرية، لايصال رسائل أخرى الى المجاهدين فيها، لغرض الانتفاض واللحاق بالبصرة، مستدركا بذات اللهجة:
- البصرة ليست أحسن منا.

فتلقى عندها ردود ايجابية انفعالية، واهزوجة تمجد بالناصرية وآل ازيرج..... ومن بعدها عرض مغرٍ للمصاحبة الى الجبايش حيث يقيم الشيخ راضي.
فيرد:
- شكرا لكم أولاد العم، أعرف دروب الجبايش، ثم ان الأمر الذي جئنا من أجله سري، وتدرون عيون البعثيين مفتوحة بالمنطقة، فلابد والحالة هذه المحافظة على سلامة الشيخ الله يطول بعمرة.
يتحرك أمتار، يتنفس الصعداء. يتكلم مع صاحبه بجرأة:
- الحمد لله، لقد تخطينا عقبة صعبة، أقل ما فيها أخذ السيارة وتركنا نتخبط وسط القصب والبردي نجتر خيبتنا لما تبقى من الليل.
- الحمد لله، نيتنا صافية.
الليل يهبط على الجبايش مبكراً، كل من فيها يعود الى داره، يغلق بابه، بصيص نور من فوانيس متفرقة، يتهيأ اصحابها لحراسة مواشيهم وممتلكاتهم، فعمليات السطو تضاعفت مستويات حدوثها منذ ايام، الطريق منها الى الفهود مشابه لما قبله، الشرطة غابت عن المدينة، والعسكر تقوقعوا في معسكراتهم البعيدة، اوقفوا الكمائن التي اعتادوا اخراجها يوميا، وسحبوا نقاط الحراسة والدوريات الثابتة على الطريق.
جسر اللعويسة الذي قُصف يوم امس، لم يعد يصلح للاستخدام الآلي الا بصعوبة تطلبت ان يترجل سالم من السيارة، ليؤشر مرة، ويضع صخرة في جوف الحفرة مرة اخرى، وبهدوء استغرق ربع ساعة عبرت فيه السيارة بسلام، لتنطلق بسرعتها الدارجة نحو الناصرية، فالساعة الآن جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل.

وسط المدينة

الناصرية مدينة يعتصرها القلق، سكانها يلتزمون بيوتهم، يغلقون على أنفسهم أبوابها ليستريحوا من ريح لا يعرفون مصدرها، ولا يأمنون من يعرفون. مالكو أجهزة المذياع الصغيرة، يلصقونها على آذانهم، يسمعون الاذاعة البريطانية ومونت كارلو، يتقلبون بينهما، يعيدون سماع الخبر اربعة مرات، ثم يحولونه على صوت أمريكا ليسمعوه خامسا بنفس الصيغة المرتبةُ بدقة، وكأن محرره واحد لجميع المحطات. (البصرة سقطت. الانتفاضة اتسعت. الجزائر تعرض استضافة العائلة والرئيس) مادة الاعلام الدارج لهذا اليوم.
هدوء يبدده الرمي المتواصل على بناية المحافظة من بعيد.
الحزبيون يدخلون مقراتهم، يشجع بعضهم بعضا، يلومون انفسهم بدلا من لوم الرئيس، فالخوف منه باق، لم تلفظه النفوس التي لفظت كل المبادئ والشعارات، يحكمون غلق الابواب، ويرصون أكياس الرمل خلف شبابيك مقراتهم بحذر شديد، يفكر غالبيتهم بكيفية الخلاص من نقيضين: قتلٌ محتملٌ من قبل المنتفضين، أو حساب يصل حد الاعدام من قبل الرفاق القريبين.
الجهات الامنية تستنفر منتسبيها. تزيد أسلحتها. تُحَصُن مواقعها. تستنجد بقيادات عسكرية وصلت بعض وحداتها متعبة، يحمل منتسبوها الباقون على قيد الحياة، فوق اكتافهم ثقل الهزيمة، لا يقوون على حماية انفسهم، ولا مجال لهم بحماية الآخرين.
بغداد ترسل الى هذه المدينة المهددة بالسقوط بعد البصرة ضباطاً من الاجهزة الامنية لاغراض التعزيز، ونقل الحقيقة مباشرة الى الرئيس.
أهلها يختفون من شوارعها، عزلوا أنفسهم داخل بيوت مغلقة، أنتقل بعضهم مؤقتا الى أقرباء في القرى البعيدة. يصح تشبيهها مدينة اشباح، ويصح تشبيه أولئك المقاتلين الذين نجحوا في الوصول اليها متسللين من الهور بالاشباح.
الناصرية هذا اليوم لا تشبه بصرة الامس التي تزاحم في شوارعها العسكريون والتجار ومستغلوا الفرص والثوار المنتفضون.
آذان الفجر باصوات تشق عباب السكون، يصاحب انتهاءها رمي شديد من عدة اتجاهات، كأن توقيتها محسوب، ساعة صفر لبدء الانتفاض.
القادمان من البصرة يدخلون المدينة مرهقين، يتجهون الى حي المعلمين دار العائلة. سيارات تمر الى جانبهم مسرعة، لا يمكن التفريق بين اصحابها، حزبيون او رجال امن، ام عسكريون استبدلوا بزاتهم الرسمية بملابس مدنية، ام طلائع مجاهدين وصلوها من الخارج، جميعهم يتحركون بسرعة، مختلفين في غاياتهم، يوحدهم التسابق مع الزمن، فلا وقت لديهم للانتظار في دروب تحقيق الغاية التي يريدون.
الوقوف امام الباب الرئيسية للدار مُحيّر بعد شهرين من الغياب، وسط احداث حرب خاسرة، واشاعات تحرك المشاعر والافكار. الطَرقُ عليها، وجرصها القائم بلا كهرباء

يزيد الفزع، والانتظار الطويل امام الباب يثير الشبهة، فالمدينة مازالت بحوزة السلطة، وان اختفت معالمها من غالبية الاحياء.
الاب مسترسل في صلاته عندما خيل اليه أن هناك طرقاً لا يميز مكانه، استعجل في أداء الركعة الاخيرة، حملق عبر سحابة من الظلمة الى الباب البعيد، حمل فانوس العائلة القديم، عاود التنصت بحاسة سمع كاملة الاستعداد.
هناك طرق بالفعل، أدهشه الالحاح بمحاولة تكراره، اذ من النادر أن يُطرق بابهم في مثل هذه الساعة المبكرة، وزاد من سعة الدهشة خفقان القلب الذي لم يتوقف. أنتظرَ لحظة في مكانه حتى سمع الطرق ثالثة ورابعة، وصوتا قويا:
- أفتحوا الباب أنا كريم.
نعم انه كريم، نبرة صوته واضحة. يتقابلان بالاحضان. يُقَبلُ بعضهم الآخر. يُحَمِدُ الاب أبنه السلامة، ويسحبه الى الداخل:
- أدخل بسرعة وأغلق الباب من خلفك، الوضع لا يطمئن.
- لحظة معي صديق عزيز.
- أهلا بكما سوية، أدخلا. ما الذي أتى بكما في هذا الوقت؟. كيف تمكنتم من الوصول، والناصرية مطوقة، وطرقها مقطعة، والحكومة لا تسمح بدخولها لأحد أو الخروج منها كما يقال؟.
- انها قصة طويلة، يحتاج شرحها وقت طويل، المهم وصلنا وأنتم موجودون والحمد لله.
- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.
ما سمعناه وشاهدناه من فوضى لليومين السابقين يذكرنا بدنو يوم القيامة، لدينا الوقت الكافي لاتمام الكلام.
- أدخل أنت وسالم، سأضع السيارة في المرآب.
- نحن جياع ورائحة الخبز الحار تملأ أنفي، لم يمحها قلق الطريق.
يفتح الباب بسرعة.
الترحاب المتكرر، يوقظ أهل البيت من نوم لم يكن عميقا، يتقاطرون على غرفة الضيوف واحد بعد الآخر، وقد أختلطت في تعابير وجوههم الابتسامة بانفعالات المفاجئة، فنزلت الدموع، حتى من الاب المعروف بقوة اعصابه في المواقف الصعبة. الام تُصر على سماع القصة كاملة. تسأل عن وليد أقرب الاصدقاء. يرويها منقوصة، يقتطع منها عمدا مادار بعد الساعة السابعة صباحاً حتى مغادرته بيت الحاجة رضية. يؤجل تفاصيل ينوي سردها للاب المربي عند الاختلاء به بعد انبلاج الصباح، فيها العديد من الاحداث المهمة، تتطلب استمزاج الرأي والخوض في التفاصيل.
يعود الاب الى الصلاة التي أعتقد أنه لم يتمها أو انها بَطُلت بالاستعجال الذي فرضته الاستجابة القلقة للطرق على الباب.
يحاوره كريم بعد الانتهاء منها:
- لم تذهب الى الجامع الذي أعتدت الذهاب اليه من قبل؟.

- لا، لم أذهب منذ أسبوع، لان الجامع الذي أصلي فيه، قد أمتلأ أخيرا بالمصلين الحزبيين، ووكلاء امن يحضرون لينقلوا ما يدور في المحيط الى دوائرهم. الحكومة أصبحت مرعوبة من خيالها.

يؤكد كريم:

- الآن علي الذهاب الى الجامع مع سالم الذي لا يترك فرضاً الا ويصليه هناك، انها سُنة لا ينوي التنازل عن تطبيقها. النية الحقيقية في الواقع ليست الصلاة، فهو لم يعتد الصلاة، لكنه خَبر تاثير الجامع في احداث البصرة، فذهب وزميله، لدراسة الوضع، والتفكير بكيفية المساعدة في اشعال الشرارة في الناصرية، كما اشعلت في البصرة قبل يوم من الآن.

الجامع لم يرتاده في صباح كئيب مثل هذا الصباح، سوى عشرة مصليين، غالبيتهم من كبار السن، شكل اثنان منهم يوحي وكأنهم ليسوا من الناصرية، يَدعّون انهم من بغداد، يودون الذهاب الى البصرة، للتفتيش عن اخوانهم العسكريين المفقودين اثناء الانسحاب، داهمهم الليل في هذه المدينة، ففضلوا المبيت بسيارتهم، وسيواصلون المشوار بعد الصلاة.

صلاة الفجر تنتهي بسرعة تعجل في حدوثها علامات القلق السائدة. يستأذن كريم المؤذن المسؤول عن الجامع للاستمرار بالدعاء، يؤيده سالم والشخصان الغريبان الباقيان معهم. يوافقه الرأي قائلا:

- إغلق باب الجامع بعد الانتهاء.

حوار تعارف وتبادل لحديث قصير فيه الطرفان الباقيان في الجامع حذران، كل منهما يتصور الآخر من رجالات الامن المندسين او من الحزبيين الذين انتشروا عصر امس لاغراض السيطرة على الموقف المضطرب. الخوف في العادة يحول دون الافصاح عن النوايا.

يترك الشخصان الغريبان الجامع، بذريعة التهيؤ الى سفر سيكون طويل الى البصرة، يعاود المؤذن تأكيده قبل مغادرته الباب:

- ولدي كريم، أطفئ المحرك والمصابيح قبل الخروج، سلم لي على الوالد الذي لم يعد يأتينا الى الجامع.

يرد كريم:

- حاضر عمي، سأطفؤها وسأغلق الباب بعد مغادرتنا.

مكبرات الصوت تعمل، وقد نقلت الاذان قبل دقائق، استخدامها لعمل هزة في الناصرية أمر ممكن.

يكلم سالم:

- علينا التوجه الى المنبر لنبدأ على الفور، لا يمكن التوقف في منتصف الطريق، والفرصة مناسبة الآن.

يمسك سالم الحاكية بيده اليمنى. يبدأ بالتكبير. يحث على الانتفاض. يبشر بالنهاية القريبة. يروي بعض تفاصيل البصرة، فهو شاهد اثبات في موضوعها. يغلق الحاكية ويتجه

صوب كريم. يطفئان المحرك ويغلقان باب الجامع بسرعة فيها قدر من الارتباك. يهمان بالخروج، فيلتقيان عند الباب بالغريبين، المسرعين نحوهما، يحملان حقيبتهما الخفيفة، قالا سوية:
- يقيناً أنتم من الثوار، كنا نخشاكم قبل قليل، بئس ظننا، نحن من المجاهدين، دخلنا الناصرية قادمين من البصرة بعد منتصف الليل، مهمتنا الاتصال ببعض المجاهدين، وثوار الاهوار، لاشعال الانتفاضة في الناصرية صباح هذا اليوم حتما، انها مدينة اجدادنا.
يجيب كريم:
- الغاية واحدة لكلينا، سنذهب الآن الى البيت، لجلب السيارة، وسنؤمن الاتصال بمعارفنا ومعارفكم، وبعض المجاهدين المعروفين من السيد.
في الطريق الى السيارة نسيَّ كريم في لجة هذا الاستعجال، ذلك الفطور ورغيف الخبز الحار، أمنيات راودته طوال الطريق.
جامع آخر قريب من الجسر، يُكَبر بنفس الطريقة ويحث على الثورة. يذم النظام. يخرجان مسرعين، يُتابعون من سيارة صالون بيضاء تعود الى أمن الناصرية، شرعت باطلاق النار عليهم بكثافة.
يتكلم واحد من الغريبين:
- كريم، استمر بالقيادة، سنعالج الموقف، لدينا من السلاح ما يكفي.
يخرجان من حقيبتهما الموضوعة جانبا، بندقيتين. يفتحان الباب الخلفي. يردان على الاطلاق بحرفية عالية بمساندة سالم، فيصيبان سائق السيارة المتابعة أصابة تبدو شديدة، حتمت انحرافها والاصطدام بعمود الكهرباء. يعودون اليها بسرعة. يجهزون على الرجال الاربعة الموجودين فيها، يضرمون ببدنها النار، ثم يستمرون في طريقهم مسرعين.

زفة ميت

الوجهة حي الصحة، هناك وكر للمجاهدين المعارضين في جامع الحي، يلتقون فيه بعشرة آخرين، يتفقون على الشروع، فالوقت أصبح مناسباً، لا يمكن التأخير.
المسؤول الاعلى في الوكر شيخ بلحية بيضاء يعطي التوجيهات:
- اثنان في كل مجموعة هو التشكيل الذي تعملون به.
- توزعوا على المناطق المتفق عليها. مجموعتا عبد الحق وكريم تذهبان الى الجسر.
يتم الخروج من الجامع تباعا.
الجسر الرئيسي الذي قُصفَ من قبل الحلفاء قبل أيام، يزدحم بالعبور، فأصبح الاكثر ملائمة لاثارة الذعر ونشر الاشاعات، بقصد التأثير على معنويات الاجهزة الامنية والحزبية، وبما يسهل مهاجمتها.
تصل المجموعات الى أماكنها المحددة، وتبدأ اطلاق النار باتجاه المقرات الحزبية، فيزدحم الجسر، وتسقط الى النهر من فتحة أحدثها القصف سيارة صالون تحاول عبوره مسرعة، عندها توزع الثوار الاربعة بين الجمهور المصاب بالهلع مصدوماً بمشهد السقوط.
يتقرب كريم من أحدهم، يهمس في اذنه:
- يقولون وصل المجاهدون الى الجسر، ثم يتجه الى آخر يكرر نفس القول.
يبتعد عنه سالم الذي صاح بأعلى صوته:
- يسقط صدام حسين. الموت للطاغية صدام حسين.
تعم الفوضى المكان، فيسحب كريم بندقيته ويبدأ اطلاق النار في الهواء، ثم يعطي أشارة الذهاب باتجاه المحافظة حسب الاتفاق مع المسؤول الشيخ عبد الرضا.
المئات يتوجهون صوبها بلا سلاح. يركضون دون السيطرة على سيقان اطلق لها العنان. يرتبك الحرس فيترك سلاحه المحشو بالرصاص ويلوذ بالفرار.
يتقدم الجمع ستة مسلحين يقودهم كريم، بينهم الاثنان اللذان التقاهما في الجامع فجرا.
يرمون على الباب والشبابيك، فيتزايد التدافع صوب الباب، التي تنفتح بسهولة.
عشرة دقائق كفيلة بانهاء المعركة التي يتفوق فيها الجمهور عدداً وحماساً واصراراً على الانتصار.
أربعة شرطة قريبين من غرفة المحافظ، يخشون اطلاق النار على الجمهور الداخل عنوة، وخمسة من أفراد الحماية الخاصة، تشلهم المفاجأة غير المحسوبة، لا يستطيعون اطلاق النار، ولا حتى المحاولة باستخدام السلاح.
المحافظ أو الرفيق المحافظ الذي أعتقد أن مقره قلعة، لا يقربها الاعداء، وأعتقد نفسه حاكماً عليها يتفيأ بظل الرئيس، جدار حصنه المنيع. قلعته تُقَطِعُ اوصالها سكاكين الابناء، والحصن يدخله المنتفضون وأصحاب الغايات الاخرى أول مرة دون إذن الرفيق وموظفي السكرتارية الذين لم يحضروا لأضطراب الاوضاع.

الدخول الآن خارج السياقات المعتادة، تجاوزٌ على انتقائية الدخول التي اشتهروا بها في السنتين اللتين حكم بهما المحافظ. الشروط التي وضعها الحزب في الدخول وزاد عليها المحافظ تسقط في الحال، لتبدأ حقبة الثورة التي تخلو من أية شروط. الدخول هذا اليوم مباح لكبار القوم وشبابهم وهواة اللعب من الصغار.
الثوار المنتفضون الستة مازالوا في المقدمة يتعقبهم مئات، يضرب أحدهم باب الحاكم الفعلي للقلعة بحذائه المليء بالطين، لم يجده في المكان المقصود، لقد تسلل هارباً قبل الوصول بدقائق معدودات.
عضو الفرع المشارك في قيادة المحافظة سياسياً، لم يسعفه الوقت الى الهروب، وربما رفضه بالطريقة التي أتبعها المحافظ. يخرجونه من العرين مأسوراً، ببدلةٍ زيتوني، ألتصقت بجسده المتعرق طوال ليل قضاه في متابعة أتصالات لم تتوقف مع القيادة القطرية ببغداد، وفي تقديم التوجيهات الخاصة للمفارز الحزبية، وإسداء النصح لآمري قواعد الجيش الشعبي المنهارة معنوياتهم قبل الاشتباك بالثوار.
البدلة تقطعت ازرارها في أول محاولة سحب قوي لجسد ممتلئ، شُلت عند نصفه الاسفل، ساقان كانتا خير معين له في التبختر أثناء المسير. تنهال عليه الضربات من كل صوب، كأنه المسؤول وحده عن القتل والسجن والاخفاء والتجويع أو هو من أشعل الحروب وخط خسارتها بادعائه المعرفة بخططها الفنية.
الخروج بزفة عريس محكومٌ بالموت، ليس لها طعم الاعراس بعد أن تبدلت فيها الزغاريد بنداءات الموت، وتبدلت فيها اتجاهات العيارات النارية من الهواء الى الصدور والحيطان. يسقط عريس الغفلة أرضاً، وقبل ان يصل ترابها المغموس بالهموم لطمه على رأسه الحاسر شيء لا يمكن أن يكون قبضة إنسان، ولا يمكن أن يوصف بالحديد، رن صداها في أذنيه رنينا بموجات متواصلة، مثل الرنين الآتي من اسقاط عمود حديدي على سندان من الفولاذ، فاتسعت موجاته على شكل دوائر بادية من الرأس لتتلاشى عند قدمين جعلتهما متخاذلتين، فتحول جسداً معداً للذبح، يُسحب الى المسلخ من ساقين مشلولتين، وأعصاب لم تعد تنقل سوى موجات رنين مستمرة بغير انتظام. يدفعونه أعلى، يهبطون به ارضاً صلدة، أو بالاحرى يرفعونه ويهبطون به كتلة لحم هشة، أنتهى داخلها الاحساس بالالم، وتوقف العقل عن التفكير، وبقى الوجه شاحباً وكأنه قد شاخ هذه اللحظة قدر ما تبقى من سنين عمره.
الجسد المرفوع الى سيارة الحمل "البيكب" تُسمع انفاسه شخيراً وسط الضجيج، يتم ايقافه عموداً عاطلا عن الاستجابة، بأيادٍ مدت من الجهات الاربعة، وأخرى تفرغت الى مواصلة الضرب على رأس ينزف دمه سيلا الى فم مفتوح ينقله آلياً الى جوف فارغ، دون ممانعة من شفاه لم تعد تتحرك، كأن صاحبها فقد الوعي تحت تخدير الركل المستمر، وهول الصدمة التي سببها انهيار القلعة تحت اقدام الداخلين. يلفون به محيطها الكئيب، فتتعالى الاصوات المطالبة بالقصاص موتاً في الحال. يخرجونه الى الشارع القريب، خلفهم وامامهم آلاف تهتف بسقوط الديكتاتور. تتزايد الاعداد بالآلاف مع كل متر في المسير.

سائق السيارة المنتشي بنصره الناجز يتقدم صوب شوارع أخرى، فيبلغ ساحة المدينة الرئيسية. وكالات الانباء تنقل الخبر، وتزيد من عندها رتوش نفسية تثير الجمهور المتجهة ناحية المقرات والرموز والأجهزة الامنية، التي تداعت جميعها الواحدة تلو الاخرى قبل منتصف النهار بقليل.
بناية المحافظة او القلعة كما يسميها البعض قبل سقوطها، تُنهب تماماً، يتجه من لم يحصل على غنيمة منها لاهثا خلف الزفة، يصلون الساحة سوية. ينزلون الشخص الذي يدفعونه الى الجحيم وقد خفت رعشة جسمه شيئا فشيئاً، حتى تلاشت حركته، وتشجع الذباب في مهاجمة فمه وعينيه.
يضرب الواقف في الاعلى على سطح السيارة العلوي، بصيغة الأمر:
- توقف هنا، لقد وصلنا المكان المقصود.
تنزل الكتلة البشرية ركلا، فتتدحرج مكورة، ليتلقفها لاهثون، يكملون الركل الذي بدأه الواقفون في الاعلى.
يتقدم رجل بجلباب مفتوح من الصدر، يدفع برميل لم يُنظف من زيت لصق بجدرانه الدائرية، بيده اليسرى قنينة نفط أبيض، كأن في نيته الايحاء لماسكي الجسد في ان يقوموا بفعل طالما حلم به، يوم أطفأت في جسده أعقاب سكائر المحققين في مديرية الامن العامة قبل شهرين. يعدل البرميل بوضع الوقوف، وهو هادئ بشكل لم يتعوده من قبل.
يتجه الى الجمهور قائلا:
- انزلوه هنا في الجب، هكذا هي النهاية المكتوبة للبعثيين.
يتلقف الجمهور الغاضب معنى الحلم، كثيراً منهم حلم ذات الحلم عندما مر في احد الدهاليز التي شيدها الحزب لتدجين الابناء.
يُحمل الجسد من الارض شبه عار. يُنزل الى البرميل، صاحبه مذهولاً لا يدري بما يدور من حوله، يجلب أحدهم اطار سيارة صالون تآكلت حافاته من كثرة الإستخدام، يضعه في الرقبة التي لا تقوى على الانتصاب، يسكب النفط من أعلى الجسد المكسو بطبقة شحم كثيفة.
يحاول كريم التدخل، قائلا:
- هذا يكفي، لقد فارق الحياة، التمثيل بالجثث غير جائز شرعا.
يتدخل الشخصان اللذان ألتقاهما في الجامع فجراً. قال أحدهم:
- كريم، لا تتدخل، الناس منفعلة لا ترى بأعينها كما أنت ترى، ولا تفكر بعقلها مثلما نفكر، أي واحد منهم لا تعجبه آراؤك، سيتهمك بالخيانة ويطالب بموتك، وقبل أن ترد على هتافه ستجد نفسك معه في نفس البرميل.
يكلم كريم صاحبه:
- علينا المغادرة على الفور أنا لا أريد أن أكون في موقف يحسب تجاوزاً على أنسانية الانسان، وان كان هذا الانسان مجرماً يستحق الموت، ثم ان الموت لا بد وأن يأتي عن طريق المحاكم.

ينتهي النقاش. توقد النار من عيدان ثقاب جاءت بالعشرات من كل اتجاه وقف فيه الحالمون. يتعالى التكبير، فينتشي الحاضرون، الحالمون وغير الحالمين، يصفقون جميعهم مع تزايد اللهيب. يهتفون مستبشرين بسقوط الدكتاتور.
المحافظ الذي صار أسداً في اجتماع الامس، عندما طالب الجهات الحزبية والامنية بالرد القوي وابادة المنتفضين، ينجح في الهروب متسللا. يترك المحافظة الى جهة مجهولة، تلاحقه الاشاعات، اقواها تلك التي تؤشر توجهه الى ناحية العلم بتكريت حيث تقيم العائلة.
يتفرق أعضاء الفرع من الحمائم والصقور بعدة اتجاهات، لم يبق في المقرات الحزبية الا قليل من الاعضاء والانصار والمؤيدين المعنيين بالحراسة. تشير آخر الاخبار ترك بعضهم مواقعه واتجه الى مكان مجهول، والتحق بعضهم الآخر الى صفوف المنتفضين، يهتفون بالضد من الرئيس، بصوت يعلو على أصوات المنتفضين الحقيقيين، تخلصاً من تبعات الانتماء.

يتداعى الموقف الامني في عموم الجنوب باضطراد، تَلفُ المخاطر أجساد المسؤولين السياسيين والاداريين حد الشعور بالاختناق. توزع الاستخبارت العسكرية العامة مدراء شعبها ورؤساء الاقسام على محافظات الوسط والجنوب، تحت ضغط السعي لايقاف التداعي. يدخل المدينة خمسة منهم ليلة أمس، يفتحون مقرا لهم في مركز الاستخبارت. يرسلون البرقيات الى المقر العام، (الموقف خطير للغاية. سقطت المحافظة. حُرق جسد عضو الفرع. هرب المحافظ والمسؤولون الحزبيون. الثكنات العسكرية داخل المدينة تُنهب من الغوغاء الذين دخلوها بالآلاف. يترك منتسبو الشرطة مواقعهم. يهربون الى أماكن مجهولة).
يأتي الرد في الحال، (أصمدوا في مواقعكم دفاعا عن الحزب والثورة. السيد الرئيس القائد يثمن جهودكم. يشيد ببطولاتكم. لا تتركوا مقراتكم مهما كان الثمن. ستصلكم النجدات قريبا، هي في الطريق اليكم).
العميد زهير الشيخلي، عسكري محترف، منضبط، معروف بالتزامه الاخلاقي، أقدم الموجودين في المركز رتبة، يطلب التوقف عن الكلام:
- أصوات هتافات غيرمألوفة تقترب من المقر.
يتأهب الحراس لاطلاق النار، يصدر أوامره واضحة:
- لا تطلقوا النار، دعونا ننتظر، عسى أن يغيروا من وجهتهم.
يجيبه أحد الضباط:
- سيدي، أنهم حرقوا عضو الفرع، سوف يحرقوننا أيضا.
- تمهلوا، نحن عسكر، ينظر الينا الجمهور نظرة تختلف عن عضو الفرع والمحافظ.
- سيدي، أنت حضرت مساء امس اجتماع المحافظ، الذي أكد على ضرورة الرد بقوة على أي تظاهر، وهم أمامنا بالآلاف.
- لقد ترك المحافظ محافظته، وقتل عضو الفرع، دعونا نتصرف بحكمة، أنا الاقدم بينكم، وسأتحمل المسؤولية، أنا لا أوافق على رمي المتظاهرين، الرمي سيكون محدداً فقط على الذين يستهدفونكم برمي مباشر، لا نريد مزيداً من اراقة الدماء.
يقترب الحشد، يصل العميد زهير الباب الخارجية في محاولة للتأثير على المتظاهرين، يناديه أحد الضباط:
- سيدي أدخل رجاءً.
يؤكد ضابط آخر:
- يمكننا الدفاع عن المقر إذا ما بقينا في الداخل، متحصنين خلف الجدران.
العميد من العسكر القديم، ثقته بنفسه مفرطة، وبأعتقاد لازمه منذ صيرورته طالبا في الكلية العسكرية بدورتها الثالثة والاربعين عام 1964، يكرره قولا في جلساته الخاصة:
- الجيش سور للوطن، والشعب لا يمكن أن يهدم سوره.

يستمر في تقدمه نحو الجمهور بكامل قيافته العسكرية، لا يولي أهتماماً لكل النداءات التي تحثه على العودة الى الداخل، همه وقف اراقة الدماء، معتقداً امكانية تحقيقها بضوء فلسفته المذكورة. يقف امام الجمع الذي طوق المقر من كل الاتجاهات.
يحاول مناديا بصوت لم يعد يُسمع وسط الصخب وكثر الهتاف:
- اخواني، كل الذي تريدونه سيتحقق، بالهدوء والتفاهم.
تتجاوزه جماعة تؤمن بهذا القول فلا ترد عليه، ولا تفعل شيئاً من اجله. تكيل له جماعة أخرى السباب، وتزيد عليه قولا:
- انتم أصل البلاء، لقد مللنا منكم، نحن نموت وأنتم تعيشون على أجسادنا، الا لعنة الله عليكم وعلى عسكركم وقائدكم.
يحاول الرد وقد أصبح وسط جمهور هائج، يتأرجح يمينا وشمالا بموجات أقوى من موجات البحر الهادر. يهجم عليه من ذاقوا الم المطاردة والاعتقال. يدفعونه بغير انتظام الى داخل بناية المركز، يجد الضباط انفسهم في موقف لا يستطيعون فعل شيء الا الاستسلام.
نساء تحمل عصياً، شيوخ جمعوا قواهم المتهالكة لهذا اليوم يحملون مناجل، أطفال تعودوا اللعب بادوات الحرب، يحملون بنادق بلاستيكية، يدخلون جميعاً في موقف تحدٍ حقيقي.
العميد زهير لم يتعود الاستسلام، يحاول الوقوف على عتبة السلم الداخلي، بالعاً الاهانة التي تلقاها دفعا قبل قليل، عدل قيافته، عاود الكلام:
- اخواني، نحن عسكريون، نقوم بواجباتنا، ننفذ الاوامر، لا علاقة لنا بالرئيس.
كلام هراء في مواقف الانفعال، تضربه امرأة بعصاها قائلة:
- هذا المركز أخذ ابني مني، رماه بعد سنة جثة مزقها التعذيب، من يدفع الثمن؟. من يسدد الدين الذي عليكم؟. أعيدوا لي ابني، وساموت هنا دون ان يمسكم أحد.
لا معنى من التدخل او التوسل، فالعميد زهير ضابط جاد، يؤمن بالقدر، معروف عنه الانضباط العالي، يسكت عن الكلام، كمن يعرف دنو المنية في الحال، لا فائدة من الكلام ولا أمل بتغيير المصير المقسوم، لكنه يحاول محاولة أخيرة:
- يا جماعة، أنا هنا المسؤول، خذوني، أقتلوني وأتركوا باقي الضباط، أنهم يأتمرون بأمري، ولا ذنب لهم بما حصل في السابق، وبما يحصل الآن. تحاول الحاجة، ضربه بعصاها. يتقدم ابنها الثاني ببندقيته صوب العميد، يرديه قتيلا، ويكمل على من تبقى من الضباط.
يصعد الى سطح البناية، ينادي بأخذ الثأر من ازلام النظام:
- لا استخبارات بعد اليوم.
يستباح المكان، وتنتشر الاضابير والاوراق بين المندفعين، ويتطاير بعضها في الهواء، اسرار حافظت عليها الدولة عشرات السنين، أوصل الهواء بعض اوراقها المتطايرة حدود البلاد. عرضٌ مجاني للأسرار، كل شيء معروض ومباح، نشر الخبر وبث الاشاعات والاقاويل كذلك بالمجان.

لم يبق مقر حزبي او حكومي قادر على الصمود امام جمهور منتفض لم يتوقف اندفاعه عند حدود.

موقع الناصرية العسكري، يحرسه جنود معاقون، سياقات تعامل لحراسة المقرات الخلفية معمول به في الحرب، يُلزم ارسال الاصحاء الى جبهة القتال ليموتوا دفاعا عن الرئيس، وابقاء غيرهم والمحظوظين، المحسوبين على ذوي الشأن، في اعمال الحراسة. المذخر العسكري، مخزن الجيش الرئيسي للرز والطحين والارزاق الجافة، يكفي خزينه أهل المدينة لاسابيع، يصل بابه الرئيسية مئات المواطنين، من كل الاجناس والفئات العمرية. يحتشد مئات آخرون خلف سياجه، يفتشون عن ثغرة يجعلونها بابا للدخول. ساعات من الانتفاض عَلمَت النسوة فن التعامل مع الجنود الحراس، دفعت أحداهن بطفلها الذي لم يتجاوز الخامسة باتجاه الحارس القريب من الباب:
- أذهب الى عمك ذاك، سيعطيك هدية في الحال، ثم تلتفت الى صاحبتها:
- ارسلي عليوي مع ابني، دعينا نرى ردة فعل الجندي.
- يعني تجسين نبضه، مثلما يقولون.
الطفلان يقتربان من الجندي الحارس القلق، يتأملان هدية عيد، لا علاقة لهما بغاية الامهات اللواتي يترقبن الفرصة للانقضاض عليه. الموقف برمته مثير للتوتر والخوف. الاوامر الموجودة عند العسكر تؤكد إطلاق النار على أي هدف يتجاوز السياج، لكن الهدف هذه المرة أطفال صغار، لا يمكن لاي من العسكر اطلاق النار على اجسادهم الغضة.
محاولة الالهاء والارباك تنجح، فتتقدم مجموعة الامهات وباقي النسوة الموجودات قريبا من الحارس الذي يبادر بالقول:
- ماذا يجري؟. ما تعملونه ممنوع، اخرجوا رجاءً خارج السياج.
تجيبه أحداهن:
- الخزين ملك الشعب، نحن الشعب، نريد حقنا فيه، لا علاقة لنا بالحاكم والحكومة، يرد عليها بلعثمة واضحة:
- وما دخلي بالحكومة والشعب، أنا مجرد جندي أحرس الباب.
ينتهي موقف المساومة، باندفاع المئات، موجةٌ أخذت في طريقها النسوة المساومات والجنود الذين قدموا لتعزيز الحراسة وجزء من السياج.
دخلت الجموع كتلا كل منها باتجاه، أمرأة تحمل كيساً من الرز على ظهرها القوي، تجري مسرعة الى البيت تتامل الظفر بآخر فالخزين كثير، صاحب عربة يجرها بنفسه، يقترب بها من خزين الطحين، يدخل مسرعاً، يخرج كيساً يضعه فيها، يعود ثانية كأنه في سباق مع الزمن لا يثق بامكانية تكرارها، يجلب آخر، يجد الاول قد اختفى، فالبعض يستمتع بنهب المنهوب، والآخر يرى الحرام في التدافع مع النساء بمواقف النهب، فيحل لنفسه الاستحواذ على المنهوب. الناتج كيس واحد للشخص الواحد مسألة عادلة برأي الكثيرين، حتى بدأ من يطالب بتطبيقه عرفاً في غزوات النهب المضمون.

مجيد صاحب العربة، الذي تم التجاوز على حصيل غزوته، يجد حلا سريعا للحد من التجاوز الحاصل، واثبات عدم صحة العدالة في مسألة الكيس الواحد للفرد الواحد، بالاتفاق مع جار ضعيف البنية لا يقوى على حمل ما يزيد عن ثلاثين كيلو غراما، والاكياس التي تملأ المذخر أقلها خمسون.
ينادي عليه بلهجة الاكبر سنا:
- جاسب، ابقى جنب العربة. أمنع أولاد الحرام من سرقتنا، سيكون لك كيس رز مقابل كيسين لي، وآخر طحين مقابل أثنين لي أيضا، فانا صاحب العربة، وأنا الذي أجلبها، سأوصل ما تحصل عليه الى بيتكم، اذا ما اتممنا العمل كما نريد، الرزق والحمد لله كثير، وأولاد الحرام أيضا كثيرون.
يمد يده داخل العربة، يخرج بندقية محشوة:
- خذ هذه البندقية التي لم تستعمل من قبل، لقد أخذتها توا من أحد الجنود.
- هل تعرف كيفية استخدامها.
يحييه:
- نعم أعرف، لقد جندوني في الجيش الشعبي خمس مرات، يكلمه بلهجة التشجيع على اتمام المهمة، فالنتيجة مغرية:
- أذهب انت بسرعة وأنا باق في هذا المكان، لن أبرحه ولا أسمح لاحد بالتقرب منه، سأكون بأتم الاستعداد، وسأملأ صدر من يجرأ على سرقتنا بالرصاص، ليكون في علمك، أننا لسنا قليلي الشر. يرفع كلتا يديه الى السماء داعيا:
- يارب سهلها علينا.
يعود مجيد الى المخزن مسرعا، لا وقت عنده لسماع الاجابة، ولا الانتباه الى الاستعراض الواضح للقوة الفارغة الذي يبديه جاسب نصف المعاق.
رجل يسحل كيساً من العدس، يتوسل الآخرين مساعدته على وضعه فوق ظهره المحني، فلم يجد من يسعفه. الوقت ثمين لا يمكن تبديده على اسعاف شيخ هنا وعجوز هناك. الفكر مشغول فقط بالصيد الثمين.
المذخر يفرغ خزينه الاستراتيجي بنصف ساعة، يصبح خاويا الا من بقايا رز وبقوليات تسربت الى الارض، من شقوق أكياس اتسعت من أحتكاكها بالارض الاسمنتية، أثناء جرها من قبل كبار واطفال غير قادرين على حمل اوزانها.
الوقت يقترب من انتصاف النهار، يجري سريعا، احداثه جسام. الاعلام الملونة ترفع على سطوح البيوت، والنسوة تزغرد من على سطوح البيوت، والشباب يطلقون النيران في الهواء من وسط البيوت.
خمسة عشر حزبياً قُتلوا في عموم المقرات التي سقطت، وما تبقى منهم غير القياديين يغيبون بين الجمهور، خلعَ بعضهم بدلته الزيتوني المثيرة للشبهة، وارتدى اللباس العربي، ومن أجتهد في الهروب مبكراً، قصد مضيف الشيخ المحسوب على عشيرته، يلوذ به من قتل محتوم.

المعسكرات خارج المدينة تحافظ على تماسكها بشكل مقبول، ضباطها عرفوا طبيعة الجمهور الغاضب، تآزروا في الدفاع عن أنفسهم، رغبة في البقاء. الطرق من والى الناصرية اغلقت تماما. الثوار المنتفضون والعشائر في كل مكان. الشارع من المستشفى العسكري الى مقر قيادة علمليات الجنوب يقطعه المنتفضون. يدخلون المستشفى، تدفعهم سريعا اشاعات بوجود ضباط كبار يتعالجون من جروح بينهم الفريق منار، قائد عمليات المنطقة الجنوبية، يصلون ردهة خاصة، يجدونه حقيقة قائمة، يختلفون في التعامل مع حالته، يتبادلون الرأي بغضب شديد.

ثلاثة آراء أعطيت مختلفة عبر عنها الموجودون بحديث تداخلت فيه العبارات:

- نقتله في الحال، انه قائد عسكري بعثي، يستحق الموت.
- ننقله الى الجامع، لنحاكمه هناك، حتى يلقى مصيره المحتوم أعداماً بالرصاص.
- لا هذا ولا ذاك. دعونا نحرقه هنا في غرفة العلاج.

رأي رابع يقدمه كريم الذي عرف باتزانه في أحداث البصرة وفي واقعة عضو الفرع قبل ظهر اليوم:

- يا جماعة الخير، دعونا نحتفظ به أسيراً، قد ينفعنا في المستقبل، فالمعركة مستمرة لم تنته بعد. يحاول احدهم فرض رأية بقوة السلاح المحمول. يسحب الاقسام، فيتحرك كريم ليقف بينه وبين الاسير، قائلا:

- أخوان، الثورة اكبر من الانتقام، يمكن ان نقتل اي شخص الان، لكننا نفقد فرصة مساومة قد نحتاجها في المستقبل لانقاذ ثائر مثلكم.

ينقسمون ثانية بين مؤيد ومعارض لمقترح كريم، وهم كذلك منقسمون تخترق اطلاقة مدفع دبابة جدار الغرفة، فتصرع اربعة منهم في الحال بينهم صاحب الرأي الثالث. يتبعثر الجرحى من باقي الردهات.

يعود كريم الى الواجهة، قائداً ميدانياً شجاعاً لمجموعته يوجه اتباعه والقريبين منه:

- أتركوا المكان حالا، الجيش يتقدم الى المستشفى. يدفع الثوار أمامه في الوقت الذي تُنزل فيه اربعة طائرات سمتية قوة خاصة محمولة، لتجهز على من تأخر عن اتمام عملية الانسحاب. تنقذ الفريق منار وباقي الضباط المجروحين.

يعاود المنتفضون الناجون من عملية القتل وبعض من الجمهور، محاولة الدخول الى المستشفى ثانية بعد ساعة من انسحابهم كنوع من التحدي، كبر في نفوسهم بعد خسارة بعض الزملاء المجاهدين. لكن الدخول هذه المرة خلى من المساومة ومن الانتقام، فقد أخليت المستشفى من الضباط الراقدين وما تبقى قليل من الجنود المساكين. يخرج الثوار المنتفضون منها في سعي حثيث لاكمال مهام أخرى، ويبقى الجمهور بتشكيلته العريضة من متفرجين مدفوعين بحب المشاهدة والاطلاع، وطالبي ثأر، ومخربين مدسوسين، وصائدي فرص ساعين لاقتناصها من المال العام، يجوبون ردهاتها. ينزلون الجنود الجرحى من اسرتهم ليأخذونها غنيمة. يحطمون الاجهزة والاشياء التي لا يمكن حملها. كل شيء مسموح ومباح في هذه الغزوة السريعة.

العودة الى البيت صارت ضرورية، بل لازمة بعد نهار حافل باحداث، تستحق التوقف عندها تأملا، ولوما، وتمتعا بمشاعر الانجاز، وملأ بطون، قربت أن تكون فارغة الا من ماء تسرب عن انابيب تكسرت بفعل التهديم، ودخان سكائر مهربة.
الاب المعتدل بآراءه، يعتب بشكل بسيط. يتابع لمعرفة بعض التفاصيل، يعطيه التدين جرعة صبر تقوي في داخله الانتظار.
الام التي لم تهدأ، ولم يُسكِن روعها الخروج الى الشارع والرجوع منه، في مخيلتها كريم وصديقه، وأفكار تقتحم عقلها عنوة لا تبوح بها لما فيها من تشاؤم قلق، يزيدها رغبة في الخروج.
تتكلم مع نفسها كلما تعود الى البيت:
- كيف يارب العالمين. من أين أتت لنا هذه المصائب. ماذا سنقول لو حصل الذي يقلقني لا سامح الله؟. يجيبها الوالد مع كل مرة تعود بها الى البيت قلقة، في محاولة منه لطمأنتها:
- أم كريم، اتركيها على الله، اليوم لا نستطيع التدخل ولا حتى بالكلام، هو أننا في هذا البيت قادرون على منعك من الخروج مثلا حتى نمنع الشباب، لقد أصبحتِ مثل مكوك الحائك تدخلين وتخرجين، دون أن تتكلمي مع أحد، بطريقة تثير الاعصاب.
تجيبه بأنفعالها المعهود:
- هل أنا صغيرة السن، لتخافوا عليّ مثلما نخاف على الشباب، ثم ماذا يعملون بالعجائز التي في سني، اليوم يفتشون عن الشباب، ألم تلاحظ الشارع، الكل مسلحون؟. لا نعرف من أين أتو الى الناصرية.
يرد عليها بهدوئه المعروف:
- أرجع وأقول، أتركيها على الله، هو الحافظ، الأمين.
اليوم يمتد بطوله دهراً من الزمان، لمن ينتظر من الشباب، ولحظات تمر برقاً لمن يشارك بالأحداث. السلطة الرسمية للدولة انحسرت تماما، بل أنتهت في هذه المدينة التي حصدت من بؤسها الكثير. يلمح كريم والدته واقفة قريباً من الباب.
يلتفت الى زميله الذي ينعشه الانتصار:
- لن نخلص من اللوم. يبتسم بوجهها ليبدد في داخلها حزمة اللوم، قائلا:
- أم كريم اليوم ما شاء الله، الوجه بدر منور، كيف يسمح لك الوالد ان تقفي وحدك في الشارع، نحن في العائلة ليس لنا بنات تقف في الشوارع.
ترد عليه بسرعة:
- لا تأكل بعقلي الحلاوة، أنا لم أكن خائفة عليك، أنا قلقة على سالم.
يخبرها بابتسامة رضا:
- لا فرق بيننا، كلانا ولداك. هل عاودك الاطمئنان الآن؟. لندخل فالحاج ينتظرنا بالتأكيد، ثم يبادر بالقول:

- أبي لقد ولى البعث الى غير رجعة.
- الله يسمع منكم.
- لماذا تقول هكذا؟. ألم تصدق أنه قد ولى؟. لم يبق مسؤول في الناصرية، وكذلك البصرة، وأخبار من العمارة تبشر بخير، والحبل على الجرار.
يبادره في القول:
- أكيد أنتم جياع، لم تتناولوا شيئا منذ الصباح.
- نعم والله لم يدخل معدتنا سوى الماء، لكننا لم نفكر بالاكل، هل تصدق بالله اننا لم نحس الجوع الا عند دخولنا عتبة الدار.
- الله يديم عليكم نعمة ما بدأتموه.
الوالدة تدخل مطبخها الصغير بسرعة، لا تأبه كعادتها للنقاشات السياسة التي تجري بين الاب وأبنه. تضع قدورا على نار الطباخ الغازي، فيها طعام الغداء المؤجل الى العشاء، الذي حل الآن، دون أن تنسى الخبز الذي يفضله كريم. يجلسون جميعاً حول الطاولة البسيطة، وعيونهم متوجهة صوب كريم، الذي يبدو كمن أخذ غفوة قبل أكتمال وضع الصحون في أماكنها، لانه لم ينم وسالم لثلاث ليال مستمرة. يؤجل الاب حديثه الى الغد، وتتنازل الام عن حصتها في الاستفسار عن الحال.
يبادر الاب بالقول:
- المهم تصعدون الآن الى غرفتكم ترتاحون والصباح رباح.
الحديث على مائدة الفطور بعد نوم عميق بشكل متواصل، تأخذ البصرة منه مأخذا، تليها مجريات اليوم السابق في الناصرية، الاب بخبرته التربوية، وعلاقاته الاجتماعية، ومعرفته الدينية غير مطمئن لما يجري، قائلا:
- أنا لم أوافقكم الرأي فيما جرى.
فيجيبه كريم:
- نحن يا والدي لم نوافق أيضا على ما جرى من أعمال نهب وقتل وانتقام، حاولنا أن نمنع بعضاً من تلك التي حدثت أمامنا فلم نتمكن، حتى شاهدنا مواقف غريبة، وكأننا في صحراء، سكانها من البدو، عشائر تغزو بعضها البعض، كأن الدولة، ليست دولتهم، ومؤسساتها ليست لخدمتهم، لقد رأينا بالامس واليوم العجب.
فيرد الوالد معلقا:
- انها أعمال لا تبشر بخير، انها لا تصب في صالح الانتفاضة. أكل الحرام فاتحة لاعمال أخرى جلها حرام. القتل خارج القانون سيجهض النفس الثوري، والفرقة ثم التشتت في الرأي وفي الاهداف، ستنهي النبل في العمل الثوري، كذلك الهتافات الطائفية، ستؤلب العالم أجمع على أهل الانتفاضة، وسيجدون أنفسهم عندها في ميدان وحدهم فيه يتحركون. ألم تقرأوا أنتم الشباب ما بين السطور؟. ألم تسمعوا في أخبار اليوم أن الفريق سلطان هاشم معاون رئيس أركان الجيش، والفريق صلاح عبود قائد الفيلق الثالث، سيتفاوضون مع قوات الحلفاء باسم الحكومة في صفوان؟.

- إنها مؤشرات بائنة، تعززالقلق على الانتفاضة التي لم تنجب حتى الآن قائدا او رمزا يسير خلفه القوم المؤمنون بضرورة التغيير. لا يمكن للثورة أن تنجح مهما امتلكت من زخم في قوتها دون قائد يلملم شمل القوى المتفرقة، كما لا يمكنها النجاح وسط جمهور يعيش وهم انتصار، يحسب هدم البنية الاساسية لدولته تمكنا من حكومتها أو أنتصارا عليها لا يدانيه انتصار.

يرد كريم:

- أنا أوافقك الرأي، يمكن أن نكون قد أندفعنا بقوة الظلم الذي نحسه في أنفسنا، ومثلنا آلاف الشباب، ويمكن أن يكون كم الظلم وسعة الشعور بالحيف، دفعت البعض للمغالاة في أعمال الهدم والتخريب.

يعلق الاب:

- لا، المسألة ليست هكذا، انها البداوة في داخلنا، أقرأوا التاريخ جيدا، فقد حدثت في العراق أعمال فرهود وتجاوز على المال العام أكثر من مرة، انه سلوك أعتاد عليه البعض يعود في غالبه الى بذرة البداوة في نفوسنا. أريد أن اسألكم كيف سيحكم أهل الانتفاضة؟. وبماذا سيحكمون؟، والنجف حتى هذه اللحظة لم تفتِ بالجهاد، حيث لا يعلن الجهاد كما تعرفون الا من الحجة. كيف يدعي البعض الجهاد؟. الامر معقد يصعب فهمه من قبلكم أنتم الشباب ولا من غالبيتنا نحن الشيوخ.

سالم الهادئ بطبعه يستمع، لا يجرؤ على التعليق كنوع من الحياء في حضرة رجل وقور عرفه ليوم واحد.

كريم يؤيد ما سمعه من الوالد الحصيف، يضيف بقصد التوضيح:

- فعلا الامر معقد وأحيانا غير مفهوم، حتى أن الثوار اليوم ألقوا القبض على شخص مشتبه به كان متحمساً يقود مجموعة تهتف (ماكو ولي الا علي ونريد حاكم جعفري) وتبين أنه ضابط مخابرات مرسل من بغداد، بمهمة حشد الجهد لهذا الهتاف الذي وجد البعض فيه متنفساً عن الشعور بالاضطهاد لعقود من الزمان، لقد تابعه بالصدفة ثائر كان موقوفاً بالمخابرات قبل عامين، عرفه في زحمة الهتاف.

يكمل الوالد:

- الآن أصبح الأمر أكثر وضوحا، الحكومة تحاول أن تعطي انطباع بطائفية الانتفاضة، والشباب يقعون بالفخ المنصوب بعد أن أستهوت بعضهم الهتافات الطائفية، والاحزاب الدينية تعزز هذا الوقوع، والحلفاء يعترفون بحكومة صدام طرفاً بالتفاوض في محاولة لتحميلها نتائج الخسارة في حرب سيستمر العراق صاغراً بتسديد فواتيرها لعدة سنين، قابلا لكل الشروط التي يملونها عليه. ومن الطبيعي سيجدون في صدام الحاكم الانسب لتنفيذها.

يتدخل سالم هذه المرة قائلا:

- ماذا تقول يا عمي، يعني الحكومة باقية.

- أن لا أقول هذا. أدعوا من الله أن لا يكون. الموقف ياولدي أخطر من حمل بندقية، أكبر من حرق مسؤول حزبي، أعمق من شعور عابر بنشوة الانتصار. الوضع غير مطمئن،

وايام سود ستكون اقسى من هذه الايام التي نفثت غلا مكبوتاً لسنين طويلة. الله يستر الجميع.
الشباب في حملهم البندقية لا يرون الصورة بنفس منظار الآباء، والمقاتلون المشبعون باليأس والاحباط لعقدين من الزمان، لا يكتفون بالتأمل والانتظار سبيلا للتغيير وفرض النظام. فاقد الاخ في نظرته للصورة لا يتأمل في القانون سبيلا لاعادة شقيقه من جديد، ولا يسمح لغيره بكسر اقفال السجن ليخرجه ولو حطاماً. الآراء متباينة، والنظرة الى الصورة هي الاخرى متباينة، ليس بين الاباء والابناء، بل والشباب من الجيل نفسه، وبين رجال دين دخلوا الساحة قسم للتهدئة وتقليل اتجاهات الظلم والانتقام، وقسم لا تعرف غايته حتى انتهاء الجدال، وكالعادة يُحسم النقاش بدعوات للتوفيق وأخرى للخروج من هذه المحنة، وباستئذان كريم وزميله في الذهاب بمشوار قريب الى الجامع الكبير.

هجوم فاشل

يغص الجامع بالحضور من كل المشارب والاعمار، محاولات تجري لجعله بديلا عن مبنى المحافظة، شيوخٌ عشائر سبق وان نصبهم الحزب والمحافظ المنتهية ولايته في الامس القريب ودعّمَ شيختهم، وصلوا على رأس جماعات من أبناء عمومتهم، دخلوا المدينة بالهوسات والاهازيج الشعبية، يسعون تورية الى نقل ولاء الطاعة من صدام الغائب عن الساحة الى الحاكم الجديد غير الموجود في الساحة. ثوب الحاكم الجديد لم يتبين لونه بعد، هؤلاء الشيوخ لايهمهم الثوب، ولا يقفون عند اللون إن كان اصفر أم أخضر أو أحمر بلون الدماء، هم جاهزون لتقديم الولاء لمن يحمل الراية الملونة ويعطي اكثر من الدنانير. يَصلونَ الجامع، يتحيرون بوجهتهم، لم يجدوا حاكما جديدا بين الموجودين، يصطفون مع الواقفين، عسى ان يكونوا أصحاب حظوة عند الحاكم الذي ستنتجه الاحداث. لا احد كبير، في هذا الجامع، عدة مجاميع يبدو على هيئاتها حسن التنظيم، وسط كل واحدة شخص كبير، يتبعه من فيها باخلاص، يتحكم بهم، لا يستطيع التحكم بغيرهم. كريم بينهم واشجعهم واكثرهم عطاءا لهذه الانتفاضة، ليس له جماعة، ولا ينفع ان يكون على رأس جماعة، فتكوينها أصعب من فن أستخدام البندقية، وأعقد من سبل الاقتحام غير المنظم لمركز شرطة. يتذكر السيد، المجاهد، والورقة التي زوده بها في البصرة قبل 48 ساعة. يطوف على الجماعات الموجودة، لم يجد في كلام احداها، وشكل تنظيمها صلة بذاك السيد، يترك الجامع الكبير، يبدأ مشوار التفتيش في جوامع أخرى عله يجد ضالته في التعرف على الخطوة القادمة، فهو في حيرة من أمره، اذ دخل المعركة مدفوعا بالثأر لصديقه، وبتأثير الانسياق مع الحاجة رضية هستيريا، فوجد في داخله المكسور رغبة ملحة لاكمال فكرة القضاء على النظام الظالم حتى النهاية، ولم يعد في عقله مكان للتراجع، لقد تعود اكمال المشاوير التي يبدؤها، لا يؤمن بالتوقف وسطا، ولا يرغب بالالوان المتداخلة. يقف حائرا.

يسأل نفسه وصديقه الجالس جنبه في سيارة التويوتا العائدة للوالد بعد أستبدالها بسيارة الباترول البعثية لاغراض أمنية:

- كيف لي اكمال مشوار أحسه عصيا مع كل خطوة أخطوها الى الامام؟.

يرد سالم بدعابة لتلطيف الجو الملبد باحاسيس الاحباط:

- لا تأبه، اللي شبكنا يخلصنا.

الجوامع في غالبيتها مغلقة وأخرى لا أحد فيها، عدا الموجود في حي الاسكان، أصبح مثل خلية نحل لا يكل شغيلتها. فيه شباب داخلون وغيرهم خارجون، وفيه سيارات تُفرِغُ أسلحة، وعتاد يوزع دون حساب.

يدخل كريم، يعينه حدسه في التيقن على انه وجد المكان المقصود. يسأل عن المسؤول، يجده في أحد غرف الجامع، رجل وقور نصف لحيته أبيض.

يقدم نفسه:

- أنا كريم، قادم وصديقي سالم من البصرة. وهذه ورقة أحملها من السيد. يرد عليه المسؤول:
- تفضل أجلس.
يطالع في الورقة، وفي حرف وضع جنب عبارة مكتوبة بخط اليد(حاملها من طرفي)، ينم عن رمز متفق عليه. ينهض المجاهد المسؤول من مكانه، قائلا:
- أهلا بك بطلا، وبصديقك بطلا، أخباركم وصلتنا من البصرة، كنا ننتظركم من الامس، قلقنا عليكم في الطريق غير الآمن، بعض مفارز الطاغية وعسكره منتشرون على الطريق.
يجيب كريم عن نفسه ونيابة عن سالم:
- شكرا لكم، السيد حملني كثير السلام اليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
يُعَبر كريم عن عظيم ايمانه بالقدر وبالله سبحانه. يصف مشاركته باسقاط المحافظة. يعترض على احراق جسد المسؤول الحزبي، ويوضح كيفية دخوله المستشفى العسكري، ورفضه قتل الضباط الجرحى الراقدين فيها، ثم يختم حديثه بالتأكيد على مبادرته في تخليص الشباب المنتفضين قليلي الخبرة من عملية أسر كادت ان تقع فيها اثر هجوم سريع بالدبابات والقوات الخاصة على المستشفى المذكور.
- هكذا هي الثورات، تتخللها أعمال يراها البعض تجاوزا وخطأ، وينفذها آخرون كنوع من الثأر ورد العقاب، أجابة يقدمها ابو منتظر "المسؤول الأعلى لقوات الفرقان في الناصرية" بشكل سريع، وكأنه لا يريد الخوض في تفاصيلها مع كريم، فيعبرها بتقديم شرح مفصل للموقف في عموم الناصرية، يؤكد فيه انتهاء السلطة داخل المدينة.
يؤشر اسبقيات عمل اليوم باتجاهين:
- أسبقيتنا الأولى توزيع معونات ومواد اعاشة من تلك التي سيطرنا عليها من مخازن الدولة الرئيسية، ستكون البداية من حي التنك، سكانه الافقر في المدينة، والفقراء كما تعرفون، وقود الثورة، المكتوين بنارها.
- والثانية وهي الاهم، ستكون مهاجمة مقر فرقة المشاة 31 التي عسكرت خارج المدينة ليلة امس، بعد انسحابها من الكويت، في انتظار اكتمال ما تبقى من وحداتها، بغية اعادة التنظيم، وترصين المواقع ومن ثم أخذ دورها في مهاجمة الانتفاضة حسبما افاد أحد المجاهدين المنتسبين الى سرية مقرها. لابد من مهاجمتها قبل اكمالها الاستعدادات، وبالمرة الحصول على اسلحة، تلزمنا في تجهيز متطوعين التحقوا بنا حديثا.
يكمل عرض الموجز، بتشويق غالب، ويترك الى كريم اختيار الالتحاق باي من المهمتين، وكأنه يختبر شجاعته ميدانيا.
كريم المقاتل، هاوي اللعب بالاسلحة منذ الصغر، لا يعير موضوع الاختبار الذي احسه في العرض أي اهتمام، عده تحديا، فضل الخيار الثاني دون الرجوع الى سالم، لأن التحدي من وجهة نظره شخصي، لا يستوجب الرجوع الى أحد في خوض تجربته.
يؤكد:

- أنا عسكري ولو بسيط، لكني أملك خبرة قتال معقولة، وعلى الاستعداد للعمل الآن.
يحمل بندقيته واثقا من نفسه، يتبعه سالم مثل ظله، يلتحقان بالمجموعة التي تتهيأ الى تنفيذ المهمة في باحة صغيرة خلف الجامع.
ثلاث مجموعات قتال للهجوم على مقر الفرقة شكّلها حميد الخبير بفن القتال وسط الاهوار، حصيلة عشرين متطوعا كانوا واقفين في الانتظار.
كريم على رأس احداها.
الثانية يرأسها سالم.
الثالثة أبقيت بامرته المباشرة.
السلاح المتيسر، لكل مجموعة رشاشة خفيفة صدأت من كثر الاستخدام في الأجواء الرطبة للهور. الدوشكا المحمولة على عجلة عسكرية تمت السيطرة عليها في الامس لم تصدأ بعد، تُلحق وعجلتها مع المجموعة التي يرأسها حميد نفسه. الشروع بعد صلاة الظهر مباشرة.
موضع الفرقة يظهر من بعيد، جنود ارهقتهم محطات الانسحاب، وبددت طاقتهم مرارة الخسارة، يقيمون متاريس أسلحة ثقيلة اغلبها بلا عتاد، آخرون يَنصبون خيما اسودت من دخان الحرائق التي نشبت في آبار النفط الكويتية، الا خيمة القائد، بقيت ناصعة البياض، عصية على الاتساخ.
سيارات النقل العسكرية التابعة لها لم تفرغ حمولتها بعد. الجنود غير كافين لانجاز مهام الحراسة والتحصين، وافراغ الحمولة، وهم فوق هذا متعبون، توزعوا على اعمالهم وجبات. مدرعتان تقطران مدرعتين، توزعتا على أربعة أركان لحراسة الموضع، فكونت نقاط حصينة لاربعة اضلاع لا يحسبها القائد حصينة، وهو القابع في خيمته يجتر الافكار المغموسة بالخذلان. قلقٌ، لم يذق طعم النوم، يأمر باقامة ساتر ترابي نصف دائري حَولَ كل ناقلة مدرعة تعمل او لا تعمل، ويؤكد على ضرورة اقامته فورا دون أي تأخير.
يقف حميد المدفوع للهجوم بحماسة الجهاد، خارج مرمى النيران، يستطلع الاهداف، يناقش آمري المجموعات، لا يعير اهتماما للسواتر والمواضع الدفاعية المحفورة على عجل، يفضل الهجوم مواجهة برتل يكون هو والدوشكا بمقدمته، تتعقبه المجموعتان.
حدد خط الشروع، أكوام تراب لمواضع قديمة تبعد سبعمائة متر عن الضلع الامامي لمنطقة إعادة التنظيم، يفتح النار على المدرعتين الاماميتين. تتقدم العجلات الاخرى جنبه بنسق نحو الاهداف، الغاية التي ارادها في صفحة الهجوم الاولى احداث ثغرة يتم منها الدخول، تساعد على ارباك الجنود المدافعين، تزيد من هبوط معنوياتهم الهابطة في الاصل، وبما يمهد الى انضمام البعض منهم لصفوف المنتفضين، والتعجيل بسقوط الموضع باقل الخسائر. المشكلة من وجهة نظره تتعلق بالضباط، وليس بالجنود، أعطى اوامره بالتركيز على تصفية اي منهم يحمل سلاحاً يفتح منه النار.
المنطقة مكشوفة، وساحة الرمي من امام المدرعات تعطيها مجال رؤيا قتالي بعيد، يتنقل الجنود المسلحون بين الخيم والسيارات، وهم ليسوا قليلين.

قبل أن يعطي حميد الاشارة الخاصة بالهجوم، ينبهه كريم:
- الهجوم بالمواجهة أثناء النهار وفي هذه الارض المفتوحة غير صحيح، أقترح تأجيله حتى حلول الظلام للحصول على فرصة التقدم أكثر الى الساتر، وربما مباغتة المدرعات، وتفادي التأثير المباشر على مقاتلينا قليلي العدد.
يرده بقوة:
- لا وقت لدينا من أجل التأجيل، ولا يوجد مبرر لفعله. نحن أكثر منهم ايمانا. ألم تقرأ القرآن، وتعلم كيف أن أعدادا قليلة غلبت أعدادا كبيرة بقوة ايمانها. هكذا هو الاسلام الذي سنقيم شرعه باذن الله.
الهجوم الآن، قالها بامتعاض أحسه كريم في تعابير وجهه العبوس، فحاول أستيعابه بتقديم مشورة أخرى تتعلق بالتنفيذ:
- أرى أن نتقرب الى الموضع أكثر، ونضع الدوشكا في الزاوية التي على يميننا لتكون فاعلة في اسناد مجموعتينا في آن معا. وأن تتوزع المجموعات الثلاثة على الركن الامامي للموضع والركنين الجانبين، ويكون لكل منها خط شروع منفصل، لتشتيت الانتباه، وبعثرة الجهد الدفاعي بثلاث اتجاهات. هذا يضمن لنا خرق أحد أضلاع الساتر بسعة يمكن أستثمار النجاح فيها لدخول باقي المجموعات.
يزداد الامتعاض قولا:
- لا هذا غير ممكن. نحن متفوقون باصرارنا. أنا القائد الان، لا أحد يملي علي الاوامر والتوجيهات سوى المجاهد أبو منتظر، هكذا تعلمت في معسكرات التدريب التي تخرجت منها قبل شهرين.
كريم العسكري المحترف في المجموعات الثلاثة، يذعن للامر الواقع، فهو قد تعلم من جانبه التنفيذ المطلق للاوامر خلال خدمته التي استمرت سبع سنين.
يتلقى الرتل المهاجم اشارة الشروع. يقترب من خط السبعمائة متر. تبدأ الدوشكا بالرمي على المدرعتين، ويتراكض الجنود المدافعون الى السواتر الترابية غير المكتملة، والحفر الموجودة. ترد الناقلات الموجودة في جهتي المواجهة برمي كثيف، يتوقف فجأة من تلك الموجودة على اليمين لمقتل الرامي، فتُكَثِفُ الاخرى رميها على الثوار المنتفضين. يبدأ الجنود الرمي من اماكنهم، وتعاود الناقلة المتوقفة رميها، بعد ان صعد اليها احد الرماة مكان زميل قضى توا.
تشكل السيارتان الاخريان نسقا مع الدوشكا، فيتضاعف الرمي، ويرتبك من في الموضع. ضباط يركضون، ويصدرون اوامر صارمة بالصمود. تقترب العجلات الثلاثة المهاجمة خمسين مترا من حافة الموضع.
حميد في المقدمة يعلي التكبير بصوت مسموع. يستشهد المجاهد الواقف خلف الدوشكا، فيتوقف رميها، فيحاول آخر الحلول محله، لكنه يفشل في مواصلة الرمي لعدم معرفته بآلية عملها، ويستشهد هو الآخر. تتباطئ حركة العجلتين الاخريين. يعتلي حميد الكرسي الخاص بالرامي لتعويض الشهيدين، بحماس منقطع النظير، فيصاب بجرح في جهة اليمين من الصدر، يسقط بسببه على الارض. يحاول كريم التقرب لانقاذه. يشتد الرمي.

يقفز من السيارة. يحمله على كتفه، يضعه في الحوض الخلفي للعجلة، وقبل أن يفقد الوعي، يعترف بخطأه، ويطلب ايقاف الهجوم والعودة الى الجامع على الفور. يعطي كريم اشارة التوقف والاستدارة، ثم الانسحاب.
يوقف الجنود الرمي بمجرد استدارة المهاجمين، لان الموقف لا يسمح بالتعقب، وهم لا يريدون التأزيم.
العجلات الثلاثة تصبح خارج مرمى النيران، تتوقف قرب سيارة حميد التي تعطل محركها، باختراق رصاصة من العيار الثقيل مبردة الماء، ثمانية شهداء من كل المجموعات. حميد مصاب اصابة بليغة، وثلاثة جرحى اصاباتهم خفيفة، يستقلون جميعهم عجلتين، يعودون الى الجامع. الطبيب المستدعى يعجز عن انقاذ حميد القائد الفعلي للهجوم، الذي ودع دنياه مصحوب بدعاوى الموجودين في أن يكون شهيدا مثواه الجنة.

للجامع رواده، ومقاتلوه، يصلّون على الشهيد، يشيعونه، يستأجرون سيارة توصله الى النجف الاشرف ليدفن هناك مع الاباء والاجداد شهيداً. يحس الصديقان الغربة وسط الجمع الذي ودع جثمان الشهيد، فيستأذنان العودة الى البيت، بعد أن ألغيَّ الهجوم اثر اكتشاف النوايا.

الشمس دخلت محاقها فتبدو قريبة من الارض. الطريق الى البيت يـأخذ وقتا أكثر من اللازم، زاد خلاله اللوم والانتقاد والتفكير بتحليل الوالد وتشخيصه المتشائم هذا الصباح. تأييد كامل دفعهم الى الاستعجال بالعودة، كأنهم يريدون التشكي امامه وسماع المزيد من التحليل، عله يخفف بعض مشاعر الانفعال السوداوي المؤلم.

أفكار مثيرة تملأ عقول الجمهور الناصري، أبو كريم وعائلته ينتظرون. الصديقان يعودان بمرارة اخفاق احساها أول مرة في حياة ثورية بانت وكأنها عقد من الزمان.

يحسمان الموقف بلسان كريم حال دخولهما البيت:

- ما قلته صباحا صحيح، كله صحيح، لقد احسسنا في طريق عودتنا الى البيت كأننا لعبنا الورقة الأخيرة، في توجهنا للمشاركة بالهجوم الفاشل على مواضع الفرقة، تحت قيادة مقاتل خبر شجاعة الهور، دون معرفة فنية بقتال العسكر النظامي على مواضع دفاعية. كدنا نخسر حياتنا بمجازفة غير محسوبة، واصرار غير مبرر.

يستمع الوالد بامعان، تَعودَ ان يسمع دون مقاطعة، يعيد الرأي المتشائم ذاته، يحذر من الانسياق وراء العواطف في مثل هذه الظروف الصعبة، كـأنه يقرأ الموقف كتابا مقررا، قد دَرسَّهُ عندما كان معلما أيام زمان.

الاستراحة مهمة بعد هذا العناء البدني والنفسي. وجبة العشاء جاهزة، يتناولونها سوية مع العائلة. الغرفة العلوية المعزولة، مناسبة لخلوة يعيدون فيها الحسابات.

يوم آخر في الناصرية، خال من حمل البندقية، دوافعه الاستكشاف والنظر الى الواقع من زاوية المشاهد الأقرب الى الحياد، بدلا من الثائر المشارك في الاحداث. تجوال بين جموع المسلحين الذين تكاثروا بالانشطار، والقدوم المكثف من العشائر القريبة، وثوار من وسط الاهوار، وبين مظاهرات توسعت مطالبها بالقصاص من أعضاء الحزب والاجهزة الامنية.

سيارت تجوب الشوارع، تقصد بيوت الحزبيين المسجلة عناوينها في عقول المضطهدين، تجمعُ من لم تسعفه أصوله العشائرية للاختباء دخيلا بين ابناء العمومة.

محاولات لتنصيب محافظ جديد بعد الاستشعار بفراغ اداري، تفشل في حمى تنافس شديد بين مجاميع مسلحة، تنتقل معالمه الى العشائر الكبرى التي تسعى الواحدة منها، ان يكون المحافظ من بين ابنائها.

تنظيمات سياسية وطنية تظهر على الساحة، لا تقوى على الصمود في دائرة المنافسة مع عشائر تمرست باستخدام السلاح والجاه وحيل اقتناص الفرص. يُترك الموضوع وتدار

المحافظة، بفيدرالية القطاعات التي يحدد مساحتها أصحاب السلاح. الوقود احد هذه الفيدراليات، تُثَبت سعره العشيرة، ينفذ خزينه بعد يوم، تنتهي فيدراليته، تنتقل العشيرة بشيخها ونفوذها المدعوم بالسلاح الى الصحة. فيدرالية أخرى عائدها مضمون تسيطر على العيادة الخارجية للمستشفى الوحيد بالمدينة، يحدد الشيخ نبهان سقف الاجور، يجبيها لصالحه، لا يؤمن بالمشاركة النسبية مع الطبيب، ولا حتى مع أفراد عشيرته الداعمين لفيدراليته. يهرب الاطباء والكادر التمريضي، فتنتهي الفيدرالية الاخرى. يخرج الشيخ ممتعضا من نظرية المشاركة، يرفض الخوض في فيدراليات البلدية، والكهرباء، لخلل في نظام الجباية. يطرح نفسه محافظا على وفق فلسفته في الاستحواذ. يفشل في الحصول على مبتغاه لظهور منافسين أشداء، شيوخ عشائر أخرى يؤمنون بنفس النظرية.

ليل الناصرية مختلف عن نهارها. ثوار يداهمون. يلتقون في مواقعهم. يستذكرون. يحسبون. يضعون أهداف غدهم. آخرون من الشباب يتجمعون حول النار عند صديق، يسهرون حتى الصباح، تخفيفا لمعاناة يوم طويل لاعلاقة له بالغد، ولا بثواره القائمين. سهرة الليلة ترتبت عند كريم. الطابق العلوي يُحجز لخمسة أصدقاء من ايام الدراسة الجامعية، سهرة لهو قاسمها المشترك قنينتا مشروب معتق جلبها صابر المعروف باحتسائه المفرط للكحول، يرددون أغاني تتحدث عن كيفية اللجوء الى الهور هربا من رجال الامن وعن الحنين الى الحبيب والاهل وحسرة الفراق، بانغام حزينة كلها انين يلائم معانيها التي تحمل في داخلها البساطة والحرارة واللوعة. يجترون على مهل ذكريات الدراسة. يستعرضون جانبا من حياتهم العسكرية المحفوفة بالمخاطر والترحال والفراق، تلهب احاسيسهم وتذكي عواطفهم، وتفتح شهيتهم لمزيد من الشراب، لا ينسون مغامرات الصبا، وارهاصات المستقبل القاتم في ظل الظروف الحالية... استعراضات عادة ما تُقطع بنداء أحدهم لتناول كأس جديد، وطلب مُلِحْ لمواصلة الغناء أو بطرفة يبرع بها سالم البصري. واقعٌ يُعبرون فيه عن طبيعة شباب الناصرية الذين لا ينسون الغناء في عز كفاحهم لحياة أفضل وسط الصعاب. يتفقون قبل الاستسلام للنوم قريبا من آذان الفجر، ان مكانهم خارج التناقضات القائمة للاحداث، انهم مختلفون عن غيرهم من الثوار، لا يستطيعون توجيه السلاح الى صدور زملائهم العسكريين لمجرد الاستيلاء على السلاح، ولا رغبة لهم بالانتقام من الحزبيين الذين اذاقوهم ويل الملاحقة عندما كانوا يتأخرون عن الالتحاق الى وحداتهم العسكرية ايام الحرب. يريدون مجتمعا مدنيا حديثا بلا ملاحقة ولا حروب، وآخرين أقوى منهم في ساحة الصراع ينتجون خراب يفضي الى حروب سوف لن يخفت سعيرها مادام الخراب، سمة تطبع السلوك.

سمير الواصل متسربا من وحدته في الكويت مشيا هذا اليوم، انتهت في داخله مشاعر التأمل، وضاعت مع انفعالات المشي الطويل أهدافه اليسارية في اقامة المجتمع القائم على العدل والمساواة، يفكر فقط بترك الناصرية والعراق والعالم العربي بأسره. يقترح الذهاب الى قوات التحالف الموجودة قريبا من قاعدة علي بن ابي طالب الجوية. يقص على اصدقاء العمر حكاية اعتراضه وصديقه من قبلهم على الطريق السريع واستلامهم

عرض خاص لنقلهم على الفور الى الكويت، ومنها الى امريكا، ووجود مئات الشباب بعضهم ليسوا من الناصرية يرومون المغادرة، انها فرصة سوف لن تتكرر، يجملها بالقول:
- عليّ ان أهاجر، لابد من تحقيق حلم طالما غازل مخيلتي وروحي.
يؤيده صالح الذي فقد عينه اليمنى في الحرب الخليجية الاولى، ويضيف:
- لا امل لنا بحياة تلسعنا فيها نيران الحروب اينما نكون.
- لا امل في انتفاضة اصحابها منقسمون، يتحركون بلا قيادة ولا هدف معلوم، وفوق هذا وذاك فان الامريكان اصحاب الشأن، لا يرغبون بالتغيير، يريدون أبقاء صدام، لاغراض لا نفهمها، ولا يفهمها الكبار.
عليّ أن أهاجر، لقد قررت الرحيل، سوف لن اخبر احداً من أهلي حتى الدقائق الاخيرة. لا طاقة لي بتحمل وجع الرأس. أريد أن أعيش ما تبقى من العمر في بلاد الغرب، مع شقراواتها، بلا وجع الحزب القائد، ولا صيحات الجيش الشعبي، ولا مسلحين يجوبون الشوارع، يطلقون النار ليل نهار.
كريم الذي استهوته الفكرة، غير قادر على تنفيذها في الوقت الراهن، لمسؤوليته الاخلاقية عن عائلة الصديق، يرد بوجع:
- كيف لي ان اتركها وحيدة في زمن أقل ما يقال عنه غدار.
اتفاق تُسرّع من حصوله نشوة الخمر، واستعدادات كريم لايصال من يريد الرحيل الى المكان الذي يعسكر فيه الحلفاء، يعرض الفكرة على سالم، عله يتمنع خجلا، لكن الاخير يقطع الشك باليقين، بعبارة شعبية دارجة:
- (رجلي على رجلك). لقد بدأنا سوية وسننتهي سوية.
يحضر الثلاثة اصحاب فكرة الرحيل بحقائبهما الخفيفة بعد الفطور، يصطحبهما كريم وسالم الى المعسكر الامريكي، قريبا من الطريق السريع ناحية القاعدة الجوية.
خيمٌ منصوبة، في كل واحدة منها، طاولة يجلس على كرسيها، عسكري، ليس بالضرورة ان يكون رجلا، فهناك العديد من المجندات، يؤدينَّ مثل هكذا واجبات بكفاءة لا تفرقهن في الاداء عن الرجال، يرتدون جميعا ملابس قتال عسكرية.
مئات الشباب العراقيين، تختطفهم هجرة من النوع الذي يترك فيها الاب أبناءه، والابن اباه، والعاشق حبيبته، املا في الحرية أو هربا من الموت، يقفون جميعا بالدور. تصل المجموعة، يبقى سالم في السيارة.
الخيمة التي قدمهم اليها التسلسل بالدور تعتمرها فتاة شقراء جميلة، بادرة خير تشبع الرغبة في الهجرة الى بلاد الشقراوات، كأنها اختيرت خصيصا لاغواء صالح الذي يحلم بعلاقة فراش مع أحداهن، ومن بعده لتنتهي الحياة.
تخاطبه مباشرة:
- هل تتكلم الانجليزية يا سيدي.
- القليل منها.

- تفضل أملأ هذا النموذج، وعندما تجد صعوبة نبهني لاساعدك، ثم تلتفت الى كريم بلغة عربية فصيحة:
- وأنت الا تملأ نموذجا وتسافر مع أصدقائك.
يجيبها بلوعة:
- ليست لي الرغبة الآن، أو مكتوب عليّ البقاء الآن، حضرت فقط لايصال أصدقائي الى هذا المكان ولاودعهم فيه، قد لا نلتقي بعد.
تحاوره بهدوء:
- أنك ستندم، الفرصة لن تتكرر، في غضون يومين ستكونون في الكويت، ومنها الى أمريكا بلد الاحلام.
يكمل حواره معها بهدوء أيضا:
- حياتنا ياسيدتي كلها ندم، نحن نادمون على مجيئنا لهذه الدنيا، نادمون على شباب قضيناه في الحروب، وسيأتي اليوم الذي قد نندم فيه ..... لم يكمل ما أراد قوله.
فتبادره بالقول:
- قلها بماذا ستندم مستقبلا.
- اعفيني، لم نتعوّد البوح بكل ما نريد قوله.
لايمكنني القول وأنا أقف أمام جندي حاربني بالامس.
تطمئنه برقة الأنثى:
- تكلم نحن في أمريكا نسمع كل شيء. لا نخشى النقد ولا اللوم، هكذا هي الحرية التي نعيشها.
يجيبها بصراحة:
- أنتم الان في العراق وعلى أرضه، تشمون هواءه، من يضمن أن لا تتصفوا ببعض ما نتصف به. سامحيني، سوف لن أكمل القول، سأجعل موضوعها واحداً من سلسلة ندم لا تنتهي الا بالموت.
أما هي فتحاول الدخول في صلب الموضوع:
- أنت متشائم، أنا لا أتفق معك، ثم يا سيدي لماذا تقبلون الاضطهاد والعيش طوال الوقت تحت كوابيس الخوف. ألم يقل شاعركم العربي على ما أذكر أبو القاسم الشابي:
اذا الشعب يوما أراد الحياة، فلابد أن يستجيب القدر.
يرد عليها بقدر من التشاؤم:
- انه شاعر، وما يقوله شعراؤنا خيال لا صلة له بالواقع. ولكي ينقل الحديث من السياسة التي لا تستهويه، ويلطف الاجواء، قدم فمه من أذنها اليمنى، وكأنه يسرها:
- لدي حبيبة لا يمكن تركها وحيدة في عالم مجهول.
تبتسم بملأ فمها الجميل قائلة:
- هذا شيء جيد، لا متعة في الحياة بلا حبيب.
- وأنتِ هل لك حبيب.

- نعم لقد درست الأدب العربي معه في كاليفورنيا، وتركته فيها منذ شهرين، عندما التحقت بالخدمة العسكرية في هذه الحرب اللعينة لاجمع بعض المال، انها فرصة جيدة لجمع المال، هكذا هي امريكا يا سيدي الرافض الذهاب اليها، المال فيها سر الحياة، الحرية أسمى شيء في الحياة. هل ما زلت ترفض الذهاب اليها مجانا؟. سأقدم لك عرضاً في هذا المجال. أذهب وأجلب حبيبتك، وسأقبل طلبكما سوية في الحال.

يرد بمثل عراقي دارج كنوع من الاستهزاء:

- (عرب وين وطنبورة وين).

- نعم، ماذا تقول.

- مثل عراقي، لم يتسن درجه في مفردات الادب العربي الذي درستهِ، وشرحه يطول.

يعانق صديقاه مثل عناق حبيب مفارق، يودعمها، يعود الى سالم، يحكي الحكاية أثناء عودتهم بالسيارة.

يختمها بالقول:

- آه كم تمنيت ان اكون معهم، لو سنحت هذه الفرصة قبل أسبوع من الآن، لكنت أول الذاهبين.

نصف الجواب الثاني

أربعة ايام هي الحد الاعلى لتحمل فراق حبيب أنقطعت أخباره وسط تزاحم الاحداث. الهدوء مع انقطاع الرمي المتواصل، تساعد جميعها على خلق أجواء مناسبة للاسترسال بالافكار، تنقله بعيدا الى البصرة التي يسكنها الحبيب، الى سؤال بقيّ على حافة ذاكرته القريبة:

- هل أمل الغاطة بحزنها وكربها تبادله نفس الشعور؟.

التحجج، والتبرير خاصية من خصائص المحبين، وسالم الراقد على السرير القريب فاتحا عينيه، مشغول بفكرة الهجرة والعيش في بلاد بعيدة، يختار فيها الحبيب بنفس طريقة اختيار الاوربيين. يقطع كريم سلسلة أفكاره، يسأله فيما اذا حل أوان الاطمئنان على الاهل في البصرة؟.

يؤكد في اجابته بقوة الراغب في الحصول على الاجابة التي يريد:

- إن الاحداث ستجعلهم قلقين، من المؤكد أنهم قلقون، كلنا قلقون، انا وانت وهم أيضا قلقون. الزيارة أصبحت واجبة، والاطمئنان، كذلك واجب. لم يدع مجالا لسالم في أبداء الرأي. يتكلم كالمحموم. نهض من سريره، يتمتم مع نفسه:

- لابد لنا من الذهاب.

الطرق الرئيسية والفرعية الى البصرة، خالية من العسكر، نقاط السيطرة لا تفزع المارة بعد ان سيطر على بعضها المنتفضون، واستحوذ على طابوق بعضها الحالمون بتشييد غرف تستر خلواتهم جنب الغرفة الوحيدة للعائلة في أحياء الفقراء التي أنتشرت في مدن الجنوب الغنية بانتاج النفط.

التوجه اليها بسيارة العائلة هي الخطوة الصائبة قبل الظهر، لتفادي المفاجئات وتقليل صرف الوقود، الذي أصبح مشكلة ليست سهلة في جميع أنحاء العراق البلد الذي يطفو على بحيرة نفط كما يقال.

محلة الجمهورية، المحطة الاولى لوقفة سير متواصل دام ثلاث ساعات، يفترق الصديقان باتفاق صامت على لقاء في بيت سالم لاحقا للسلام على الاهل، وقضاء ما تبقى من الليل، وقبل أن يفترقا فعليا يؤكد كريم:

- الاول أطمئن على بيت الخالة رضية، وبعدها نلتقي عندكم في البيت، علنا نخرج الى مكان نسهر فيه.

يجيبه سالم:

- أنا بأنتظارك بعد أن تطمئن، وتشبع من الأطمئنان الذي لن تشبع منه أبدا.

- ماذا تقول.

- اني أتكلم عن مشاعرك التي لم تستطيع البوح بها حتى الآن.

- الكلام في هذه الامور الآن غير مناسب. دعنا من المشاعر، وسنلتقي عند المساء.

- الله معك. وأنا ايضا معك والى جانبك.

حقيقة الامر، والدافع الرئيسي في هذا المشوار المفاجئ، هو الحصول على أجابة محددة لسؤال راوده منذ أن ترك البصرة قبل أيام، وما زال يراوده حتى في المنام:
- هل تبادلني نفس الشعور؟. لا يمكنني الاقتناع بأية أجابة، سوى منها شخصيا.
القلب يخفق عند أول طرق خفيف على الباب، يتردد في تكراره خجلا، أو خشية من افتضاح نيته في التفتيش عن إجابة عملية للسؤال، في ظروف يقتنع تماما أنها غير مواتية، يتمنى أن تكون أمل من يفتح الباب، ليكون الموقف مناسبا لتقدير الاجابة على السؤال. ألم تكن هي من جلبته الى البصرة تاركا الأهل في ظروف غير طبيعية؟. العدل يلزم ان تكون هي من يفتح الباب. يعيد الطرق ثانية بوقع أشد، يجد الاعذار في داخله جاهزة، لان يكررها:
- علهم لم يسمعوا الطرق.
تخرجُ الحاجة، تستند على عصا هذه المرة، كأنها شاخت في الايام الاربعة، خمسون عاما أخرى، يتفاجأ وكأنه لم يتوقع.
يسأل قبل ان يلقي السلام:
- خالتي، هل أمل بخير؟. يستدرك تهوره. كان عليه ان يسال على ام وليد أولا، ألم يكن هو من عاهدها ان يبقى لها ابنا بارا؟. يدنو منها، يُقبلها من رأسها، يعدل سؤاله. خالتي هل انتم بخير؟.
الايام الاربعة كانت صعبة، ألتفاف بالحزن يحرق قلب الام. لاخروج خلالها، ولا خبز في التنور، كأن العالم قد تغير فجأة، وكأن سكنة البيت من أهل القبور، يزارون من كل الامكنة، يسأل الزوار من المعارف والاغراب عن سر العجوز التي أشعلت الفتيلة بمحراث تنور متهاوي. كأنهم يفتشون عن سبب مجهول، وكأن أهل البيت يفتشون بنفس المحراث في أكوام قش عن مستقبل مجهول.
تجيبه:
- أمل يا حسرتي لم تكف عن البكاء، كان اخوها عزيزا، وكان سندها في هذه الدنيا. في داخلها توجس من الغد، بقيت تسأل عنك طوال الاربعة أيام، مثلما كانت تسأل عن وليد. يهرب منها بعيدا في التفكير أو يهرب من نفسه خشية أن يقع في مطب آخر يفضح مشاعره في وقت غير مناسب، فيقتنع بأن الخالة قد اجابت على نصف السؤال. ويتنبه الى استمرارها بالكلام.
- لا مفر من القدر المكتوب ياولدي، الاستسلام له ولأمر الله شيء مطلوب. يرد عليها بخشوع:
- الحمد لله، كل الحمد أنكم بخير، لو تعرفين ماذا جرى بالناصرية، لرفعت رأسك الى السماء وحمدت الله آلف مرة.
تجيبه:
- هل ما جرى في البصرة قليل؟.
الكراسي في أمكنتها، وكذلك الطاولات التي أعدت للعزاء، كأنه قد استمر خلافا لقرار الحاجة باقتصاره على يوم واحد، العادات تلزمها الاستمرار وان لم ترِد.

يجلس على كرسي بمواجهة الغرفة التي تقيم فيها أمل، يتعمد الحديث بصوت عال عن الالتزام بالتقاليد التي لا مفر من الالتزام بها، كأنه يريد ان يُسمعها صوته، عسى ان تخرج، فيجيب وجهها على النصف الثاني من السؤال، أجابة تبرر حضوره من الناصرية الى البصرة في هذا الوقت العصيب. يدخل في دوامة التفكير، يحاول ان يعطي انطباع السامع المتلهف لحديث الحاجة المتواصل، وفكرة تتكرر في مخيلته قسرا عن ذلك السؤال.

لم تنته الدقيقة، وقد خرجت أخيرا من غرفتها، موشحة بالسواد، عيناها غائمتين بالدمع الذي لا تنقطع مجاريه. تمشي في صمت تُسمع من خلاله دقات قلبها على بعد أمتار من المكان. يلوح الترقب على وجهها، كانت في ثياب سوداء تزيد من لمعان عينيها السوداوين. يهرب من نفسه مرة أخرى، كمن يدخل في غيبوبة، يفيق على حوار له مع ذاته الغائبة:

- كيف لي أن فارقتها وهي في هذه المحنة أربعة أيام؟.

يلاحظ التوتر في وقع خطواتها، وعلى خصلات شعر اسود تدلت على جبهتها دون أنتظام. قام من مكانه، خفضت نظرها الى بقعة الارض القريبة من قدميه، ألقت بسلام فيه لمحة حياء، وصوت تغمره نسمة حب غير مفضوحة، عندها بدأت في نفسه لحظات سحرية لا حد لحلاوة مذاقها. جلست جنب امها، تحاول سرقة نظرة دون اثارة الانتباه، فكانت نبرات صوتها المرتعشة، واحمرار وجهها الممزوج بالسمرة البصرية، إجابة مطمئنة لسؤال القادم متعباً هذا النهار.

المساء في نهايات شتاء البصرة وبداية الربيع، لا يتأخر حلوله، كأن الساعات التي سبقته، لحظات انتهت بطعم خاص، يريد التغاضي عن موعده، وتأخير مغادرته للقاء سالم. الامر أقرب الى المستحيل كيف يبقى في هذا البيت، وهو الغريب؟. يحاول ان يضع أعذارا من عنده، فيجدها حمقاء يخجل منها. يستأذن الخروج بالقول:

- لدي موعد مع سالم، لابد لي من السلام على أهله.

الحاجة في داخلها رغبة في أن يبقى، قد تكون تناغما مع رغبة أحستها في نفس ابنتها المكسورة، او سعي لا ارادي لأمراة شرقية، تجد في الاتكاء على سند رجولي مسألة مهمة لها ولابنتها في دنيا خلت من الرجال:

- كيف تخرج في هذا الوقت. الدنيا تغيرت، لا توجد فنادق، ولا اماكن للمبيت، أبقِ معنا وانت مثل ابننا. الرد عنده على طرف اللسان:

- المبيت هذه الليلة مع سالم، ابن الحاج مجيد، الذي رافقني الى الناصرية، عاش مع العائلة اربعة أيام، كأخ بكل معنى الكلمة. لابد أن أرد له جزءً من الدين الذي عليّ. التفاتة أمل لاطالة البقاء بحجة العشاء، يجدها مناسبة لاضافة ساعة أخرى تنعش في داخله الامل بمزيد من الاقتراب. ينكث عهد العشاء مع سالم، عارف بطبيعته السمحاء. الليل يمتد طويلا، يكفي أن يقص فيه كل التفاصيل الى سالم الذي سيسامحه على نكث وعد العشاء والتأخير.

العشاء اشبه بالجاهز، حيث الطبخ اليومي لعشاء على روح المرحوم وليد طيلة الايام التي أنقضت، عادة التزمت بها على الرغم من عسر الحال. أمل تبطئ من جانبها التهيئة والنقل، وكأنها تريد منه البقاء لاطول فترة ممكنة، فليل البصرة موحش هذه الايام.
لقد فهم الرسالة، شعر بنشوة لم يشعرها من قبل على الرغم من اجواء الحزن التي يعيشها مشاركة معها أحلى وأعز حبيبة.
يطرق سالم الباب مخاطباً:
- لقد تأخر الوقت، والموعد قد أنتهى من ساعتين.
تجيبه الحاجة، وكأنها متوقعة قدومه في أي وقت:
- أدخل أبني سالم. تعال أشرب الشاي معنا.
لقد وجدت الحاجة بمشاركة سالم في شرب الشاي، مخرجا مريحا لوجود كريم في البيت بهذه الساعة.
العشار في هذه البصرة الموصوفة بجمالها يصبح خربة. الأزبال في كل مكان. المقاهي المعهودة على شط العرب تقفل أبوابها، يسكن بعضها مسلحون. محال الشرب كذلك تغلق أبوابها، يغادرها الرواد المنعمون والادباء والفنانون والسواح القادمون من باقي مدن العراق والبحارة المارون بالميناء، والمترددون اليها من الجارة الكويت. فندق شيراتون الشهير، تعرض لضرر كبير جراء القصف، أكمل على باقي أثاثه النهابة المتربصون.
يسأل:
- أين يمكن قضاء الليل؟. لا فائدة من قضائه خارج البيت، لان الرمي المتقطع مازال موجودا يبدد عتمة الهدوء، واذا ما دخلنا للسلام على الاهل سوف لا نستطيع الخروج قبل ساعات.
يكمل سالم حديثه:
- الوالد قبل قليل أكد أن جماعات من خار ج البصرة تدخلها بقصد الثأر لم تخرج منها بعد، وأطراف سياسية معارضة للنظام، تحاول تنظيم ادارة مدنية، تفشل لضعف الامكانيات، وسعة الخلافات بين المسلحين المسيطرين على المقرات.
- لقد ضاعت البصرة يا أخي كما ضاعت الناصرية.
- مع هذا فالحرية التي حصلنا عليها حتى الآن متعة، تشعرنا جميعا بالارتياح، نتكلم بلا حساب، نشتم بلا حساب، كل شيء مسموح، لا أحد يفكر في الغد ولا بالمكتوب، ولا بأي حساب.
يسأله كريم:
- وما أخبار الشباب هنا.
يجيبه سالم:
- انهم مثل أقرانهم في الناصرية، يفكرون بالذهاب الى القوات الامريكية المتواجدة في صفوان، سعيا الى الهجرة، أعدادهم بدأت بالازدياد، كما يقول أخي سلمان.

مهمة سرية

الصباح أكثر هدوءا، يبدده طرق على الباب، يخرج سالم وأثر النوم باق على عينيه، ثلاثة مسلحين، يسألون عن كريم، يطلبه السيد في الجامع لامر هام، يؤملهم بالحضور بعد الفطور الصباحي. السيد في الجامع أخذ غرفة المؤذن مكانا له، عملها كمقر لقوات الفرقان التي يدير شؤونها بالبصرة، ولحين ايجاد مقر يليق بتاريخها النضالي، غير الاثاث الموجود، ليكون أكثر رسمية، جهاز (راكال) قريب منه، يؤمن الاتصال بالمجموعات والقيادة التي لا يعرف الباقون لها مكاناً.

يبادر كريم بعد القاء السلام:

- أهلا بك وبعودتك أخ كريم، نعتب عليك عدم حضورك للسلام.

يجيبه كريم:

- سيدنا، أحداث الناصرية، مازالت ترهقنا، كانت أربعة أيام صعبة، ثم أني حضرت مستعجلا لاطمئن على بيت خالتي بعد فقدان ولدهم الوحيد، وسأعود الى أهلي في الناصرية التي لا يطمئن وضعها الداخلي.

أجابه باختصار:

- اطمئن، ولا تقلق، كل شيء سيستقر. المهم قد تهاوى النظام في كل مدن الجنوب. عندما يكتمل سقوطه، سننعم بالعيش الهانئ، ونعود الى اسلامنا الصحيح. كلام عام، فيه مجاملة لا تخلو من تلميحات لا يفهمها كريم. يكمله بقدر من التفصيل:

- المهم هي النجف الاشرف ياكريم، فيها مراجعنا، انها لم تبدأ أنتفاضتها بعد، معلوماتنا تؤكد أن الملعون هدام قد زرعها برجال الامن والمخابرات، بحيث لم يمتلك النجفيون فسحة للتنفس.

يرد كريم بمجاملة لا يمكن اخفاء مضمونها:

- الله يسهل، وينتهي هذا المجرم.

- ينتهي بأمر الله وبمشيئته، وبعمل الخير الذي أراده الله سبحانه، لا بد أن نعمل، يقول الله جل وعلى أعمل ياعبدي وأنا معك. رباط الكلام، تدري معزتك عندنا وتقديرنا لشجاعتك، الامر الذي جعلنا نختارك من بين الجميع لمهمة خاصة بالنجف الاشرف، عسى أن تسهم في تعجيل انطلاق انتفاضتها قبل أن يستعيد النظام قدرته على الرد، وبالمرة نحصل على توجيهات تخص الادارة وشؤون المناطق التي يصعب السيطرة عليها.

- أنا جئت الى البصرة كما قلت لك في قضية عائلية، بعد أن أنجزت الذي عليّ من الناحية الشرعية، وقررت مع نفسي أن أتفرغ الى عائلتين ليس لهما سواي. قالها كريم لصياغة حجة التمنع عن أداء مهمة في معركة قرر مع سالم توديعها بسبب تكرار الاخطاء التي أرتكبت في مجالها.

لكن السيد لا يوافقه الرأي قائلا:

- أنا اقدر وضعك، والتزامك العائلي هنا في البصرة وهناك في الناصرية، لكني أسألك، ما فائدة العائلة والالتزام بها اذا لم ننه مهمتنا في القضاء على رأس الافعى صدام؟.
ألم تعلم أنه اذا ما فاق من وقعته هذه سيتابعنا لسابع جيل، وسوف لن يبقي خيرين من أهل الجنوب؟.
أسئلة يراد منها عدم إعطاء مجالا للرفض أو حتى التأجيل، فالأمر هام وكريم الوحيد المعول عليه، وجميع الاتباع المقاتلين المجاهدين هم من العاملين في الهور أو القادمين من الخارج، الذين لا يمتلكون خبرة التعامل مع مفاجآت الطريق.
- المغادرة هذا اليوم حتما، كل دقيقة لها ثمن من أرواح أهلنا وابنائنا.
كريم الخجول بطبيعته، لا يستطيع رفض الطلب، وان شعر بالاحراج. يناقش الامر مع سالم.
يؤكد:
- سأذهب وحدي، أنجز المهمة وأعود سريعا الى البصرة التي لم أرتوِ من هوائها العذب.
يجيب سالم بقدر من الجدية:
- لا يا أخي، لقد تعاهدنا على العمل سوية، سنفعلها معا باذن الله، الافضل لنا أن نكون معا، وأن نغادر بعد الظهر.
يؤيده كريم قائلا:
- لدينا فرصة توديع الخالة رضية.
- رضية وبس!.
- طبعا رضية ومن معها.
مدينة العمارة محطتهم الاولى، كانت قد زحفت لها بنادق المنتفضين بعد يوم من انتفاضة البصرة، يدخلونها عصرا، أخبارها مدينة تمتلك ذهباً أسود، وغالبية أهلها لا يملكون قوت يومهم، تؤكد نتائج الايام الفائتة، قيام المحتاجين والمنتفضين القادمين من الاهوار باسقاط سلطتها في وقت قصير، بعد ان خرج اهلها عن بكرة ابيهم الى شوارعها غير المرصوفة، باسلوب لا يختلف عن اقرانهم في البصرة. حزبيوها وامنها قد أختفوا بنفس طريقة اختفاء الزملاء، وَقُتِلوا كذلك بنفس الطريقة.
الانتقام مارد خرج من قمقمه مسعورا، هيّجَ عداوات كانت مكبوتة في النفوس لعشرات مضت من السنين، يتفق مع شيطان الثأر الحائر وسط احداث اختلطت فيها أفعال الثوار الساعين الى اسقاط النظام، برغبات الخارجين عن القانون. اتفاق هو الاول في حياتهما الطويلة على الاثارة والاغواء، يحثون الضعفاء على ارتكاب اعمال القتل والسلب والتخريب والاغتصاب، يدفعونهم الى ملاحقة اهدافهم الى البيوت. يمعنون. يغالون ويدَّعون انهم ثوار. يحاول المنتفضون الاصلاء ومعهم وجهاء القوم وكبارهم الاحتجاج على أعمال يرجعونها الى الشيطان، لا أحد يسمعهم فعمت الفوضى، وصرخ المظلومون نحن أبرياء.

آثار السلب في هذه المدينة تبين أنه قد تم بسرعة، والازاحة والقتل حصلت بسرعة أكبر، كأن الفاعلون من منتهزي الفرص غير واثقين من النجاح، فآلوا على انفسهم اتمام غاياتهم البعيدة عن بناء الدولة والنظام قبل استفاقة السلطان من غفوته، والتمكن من اعادة السيطرة وحرمانهم من الانتقام، أو ان البعض من فرط كرههم لسجون عذبتّهم حد الاعياء، لا يريدون استخدامها لعدوهم، مفضلين اماتته قتلا دون تعذيبه في ذات السجون.

العمارة بعد ظهر اليوم أكثر هدوءً، سفينةٌ أتعبها الابحار وسط محيط متلاطم الامواج، سكنت قرب الشاطئ، مستسلمة لقدرها المحتوم، ركابها يلتقطون الانفاس، غابت عنها سلطة الربان تماما، تبخّر عنها من يساعد الربان، أختفت كل الصور والجداريات والتماثيل بوقت قصير يثير الاستغراب، مثلما كان أختفاؤها في البصرة والناصرية بوقت قصير أيضا. أنتهت الاهداف المغرية لصناعة هجوم. ظهرت مشاكل السيطرة والادارة وتصريف الهموم، تغري البعض للقيام بأكثر من هجوم. أربعة ايام كانت كافية لتصفية حسابات أرشفتها آلاف الدفاتر المطبوعة كلماتها في عقول لا تمحى من خلاياها الحسابات.

علماء دين أتقياء يَدعونَ الى التوقف عند حدود بلغها المنتقمون، آخرون سُجلوا علماء دين، كان لهم ارتباط باجهزة الدولة المنتهية سلطتها المحلية، يدفعون باتجاه المزيد سعيا منهم لابعاد شبهة الارتباط التي تحوم حولهم. شيوخ عشائر يظهرون من بين الاموات، ينادون بتطبيق أحكامهم في الفصل بقضايا الانتقام، فرصة لابد من استغلالها لكسب المال.

آلاف من حوادث الانتقام حصلت، وآلاف أخرى ستحصل، وان لم تحصل سيكونون سببا في حصولها، بسوقٍ تفوح منه رائحة الانتقام والسحت الحرام.

الطريق منها الى الكوت مسيطر عليه من قبل المنتفضين، وكذلك حال المدينة التي اتم المنتفضون السيطرة عليها. يدخلونها ويخرجون منها دون توقف.

سالم يسأل كريم، كأنه العارف جيدا بجغرافية المنطقة:

- اي طريق سنسلك الى النجف؟.

لقد تداخلت في جميع الطرق سلطات الحكومة بسلطة المنتفضين.

يحدد كريم السبيل بالقول:

- سنأخذ الطريق الذي يمر من الكوت الى النعمانية، فالشوملي ثم الدغارة، لان جميع النواحي والاقضية على هذا الطريق أنتفضت وأخرجت سلطة الحكومة من مواقعها، تبقى لنا الديوانية، يمكن تشبيهها بكومة قش تنتظر من يوقدها.

ليلة نجفية

ليل النجف فيه نسيم مشبع بلسعات برد يتلذذها الماشي بين الشوارع قريبا من وادي السلام. في سمائها قطع سحاب متفرقة، خجلى من عدم القدرة على الإمطار، يستغلها كريم وسالم للدخول الى البلدة سالمين والتسلل الى عنوان أعطي لهم من قبل السيد، يكون في محلة الرباط، ويستغلها المحافظ من جانبه في تجوال حذر بين المراكز والنقاط. يحاول شد الازر ورفع المعنويات. يكرر مقولة رئيسه (فجروا الفقاعة قبل ان تكبر). يخولهم جميعا بتفجيرها رمياً على أي هدف يثير الشكوك، لكنه وفي طريق عودته الى مقره فجراً هبطت معنوياته وسرحَ ذهنه في أفكار شؤم عديدة، فتكلم مع مدير مكتبه، كمن يأس من أحتمالات الاستمرار:

- عسى أن تأتي العواقب سليمة.

- ستأتي سليمة، سيدي المحافظ.

- من أين، وغالبية الجنوب أصبح بيد الغوغاء.

- سيدي النجف تختلف عن باقي مدن الجنوب، أنا نجفي وأعرفها جيدا، انهم يحبون السيد الرئيس، يضحون من أجله بكل غال ورخيص.

تمتم المحافظ مع نفسه، وترك مدير مكتبه داخلاً غرفته التي بات يكرهها، غير مقتنع بما قاله هذا المدير، متيقنا أن ما يقال مداهنة، خدرته وكثير من البعثيين الكبار طوال السنين التي مضت من حكمٍ لم يشهد استقراراً.

المعسكر الوحيد في النجف لاغراض التدريب، تصله تعزيزات لا تكفي لسد النقص في نقاط الحراسة التي اقيمت من حوله، وفي اعداد الدوريات المطلوب اخراجها راجلة لدعم الجيش الشعبي. القيادة لا تعول على عسكرها هذه الايام، وعيونها المنتشرة بين الجمهور ترصد تعاطف غير مسبوق لمحبطي حرب زجوا فيها خطأ، ملأت نتائجها المخجلة نفوسهم بعدوانية، يفتشون عن مخرج لها باتجاه الدولة، مع جمهور يعتقد أبناؤه انهم يعيشون في دولة يرأسها عدو يشعرهم بالشماتة على الدوام. الشك يدفع المسؤلون بوضع قاعدة للجيش الشعبي قريبا من المعسكر. ترصد المنتسبين. تجهض نوايا المشاركة في الانتفاضة اذا ما جاءت من داخله.

الحاج حمزة صاحب العنوان الذي قصده كريم يرحب بضيفيّه قائلا:

- من المستحيل ايصال الرسالة الى المقصود شخصيا، في هذا الوقت العصيب، لانه مراقب بشدة من أجهزة الدولة التي تعتقل بل وتقتل اي شخص يقترب من بيته، وان كان قريب النسب.

- مع هذا لا خيار سوى الانتظار يوم غد عسى أن يتهيأ حل مناسب، سأجهز لكم مكان المبيت في داري هذا، لا يمكنكم الخروج والتجوال في المدينة المليئة برجال الامن والمخابرات، حتى ان قسما منهم يقومون بايقاف المارة يسألون أي سؤال، يعرفون من لهجة الاجابة، أن المعني ليس نجفيا، عندها لن تخلصوا منهم.

يمتلئ الشارع النجفي في الصباح بالقادمين من خارج المدينة، من اقضيتها ونواحيها، وآخرين من محافظات سيطر فيها المنتفضون، على الرغم من التشديد في السيطرات المنصوبة على مداخل المدينة. الزحمة تشل القدرة على الضبط والسيطرة. تحركات غير عادية. شباب يُنَظمون انفسهم في مجاميع. سيارت مليئة بالمساعدات، تفرق اكياس من الرز والطحين، ومعها بنادق وعتاد، لا أحد يسأل عن مصدرها. اشاعات يتناقلها الشباب بان الكوفة باتت بيد المنتفضين، وكذلك المشخاب والعباسية، تلهب الحماس.
حشود جماهيرية تنطلق من ثلاث محاور، يدخلها كريم وسالم وصاحبهما الحاج حمزة، يشغلهم حماسها عن التفكير بوسيلة مناسبة لايصال الرسالة وتلقي الجواب. الحشود تلتقي في مركز المدينة، تتجه الى الحضرة العلوية، تدخل بالالاف يكتض المكان حتى لم يعد يتسع لأحد في وضع الوقوف. تُغلق ابواب الحضرة على آلاف الموجودين داخلها، يلف شباب بين الجمهور القلق، يشيعون دخول الثوار أحياء المدينة، وهروب البعثيين إلى خارجها، تتعالى أصوات التكبير.
يتدافع المواطنون في سعيهم للخروج، يتكدسون قرب الابواب التي فتحت فجأة من جهة مجهولة، يندفعون بحماس المشاركة مع الثوار الداخلين، وبدوافع التجنب القوي لزحمة وجود توحي بالاختناق. يدوس البعض على أصحابهم وذويهم في تدافع غير مسبوق. يراقب كريم شاب دخل غرفة المؤذن متحمسا، يسحب الحاكية، يبدأ التكبير، يعلن انطلاق الثورة الشعبية على الطغيان.
يقف الحاج حمزة على حافة ايوان غرفة مخصصة لأحد العلماء الدارسين، فيقول:
- وصل الثوار، هرب المحافظ.
يتعالى الرمي في مناطق متعددة من المدينة. الجمهور المنجرف موجات بحر هادر يسحق نقطة السيطرة القريبة من باب الطوسي. يستولي الشباب على سلاح أفرادها.
خمسة ثوار مسلحين يهجمون على مركز الشرطة القريب من محلة الاسكان، يطردون المنتسبين، يرفعون علماً أخضر. تقف في الشارع الموازي للحضرة سيارة حمل بلا ارقام، تُفرغ حمولتها من البنادق والرشاشات، توزعها بالمجان لمن يريد حملها، ثائراً أو منتقماً، لا فرق بينهما مادامت الغاية اسقاط النظام.
يبدأ الزحف من المركز الى الاطراف، يسقط في طريقه مقرات حزبية، وقواعد جيش شعبي. ينتهي اليوم الاول، مئات القتلى من الطرفين، جثثهم في أماكن سقوطها، لا يمكن أخلاؤها، كل طرف يمنع بالقوة أخلاء جثث عدوه في ساحة القتال التي يؤثر فيها.
الحاج حمزة المتنفذ بمدينة النجف، يصطحب ضيفيه بعد انطلاق الشرارة الى آخرين مؤثرين يعرفهم عن قرب، يتبادل واياهم الرأي بشأن الرسالة والجواب، يؤكدون استحالة اجراء المقابلة المباشرة هذا اليوم أيضا، تتسع رقعة القتال، مؤشرات التحرير أصبحت واضحة المعالم. انتهى يوم وتلاه آخر، يترك فيه عضو القيادة القطرية المدينة باتجاه الحلة، يتبعه المحافظ قبل سقوط مقره بلحظات. تفتح السجون أبوابها بقوة السلاح، يطلق سراح نزلائها جميعا دون استثناء، تحرق دوائر الجنسية، والتسجيل العقاري دون أستثناء... تعلن النجف مدينة محررة.

ارتجال قصيدة

النجف تنتفض، يسيطر الثوار على قاعدتين للجيش الشعبي، يعتقلون جميع منتسبيها في مدرسة الحكيم، يُضيفون اليهم آخرين، يصبح العدد أربعمائة بعثي حشروا في صفوفها المتفرقة، تفتح محكمة ميدان شرعية بنفس المدرسة، تحاكم خمسون بعثيا في اليوم الواحد، أحكامها بالاعدام تنفذ في ساحة الاصطفاف المدرسي في الحال، والافراج كذلك ينفذ في الحال، لا أحكام بالسجن، لا استئناف للحكم الصادر، لا تصديق على صدور الحكم. الثورة تقتضي التنفيذ الفوري، وجثث المحكومين تنقل بسيارة البلدية المخصصة لجمع النفايات الى مزبلة تقع في بحر النجف. الوحدات العسكرية تتنقل بحرية معقولة في أطراف المدينة لا أحد يقترب منها، ولا أحد منها يحاول أفتعال أشتباك قريب، تطلق أحدى كتائب مدفعيتها قذيفة باتجاه وسط المدينة دون هدف مقصود سوى الانتقام، تسقط في مدرسة الحكيم المتخذة معتقلا. تعم الفوضى، يعقبها هدوء غريب.
العشرون المتبقون، كآخر وجبة معتقلين لم يتسن سوقها الى المحكمة، يستغربون الهدوء وفي مخيلة كل واحد منهم أمل ضعيف بالنجاة.
يتبرع المفوض مجيد في الخروج وجس النبض قائلا بصوت مشوب بالخوف:
- سأستطلع الموقف، وسأزودكم بالتفاصيل على الفور.
يتحرك. يتكلم. يكلم نفسه، بصوت عال يداري خوفه الشديد، يستطلع المكان، يعود مسرعاً ليخبر الرفاق:
- لا أحد في المكان، الجماعة تركوا المدرسة من وقع القنبلة التي أنفجرت قبل قليل، قد يكون الجيش قام بهجوم على المدينة.
- لملموا أنفسكم. أخرجوا على الفور، كل واحد يخلص نفسه، قبل أن يعودون الينا.
يتركون المكان. يدخل بعضهم الصفوف الاخرى بحثا عن رفاق لهم محجوزين، يجدون كومة جثث لآخر وجبة حوكمت، لم يسعف الحظ نقلها الى المزبلة، اطلاقة المدفع حالت دون ذلك. يقف المفوض مجيد، ورائحة الموت تزكم أنفه، يرى رأس أحدهم يتحرك، يئن طالبا الرحمة، يتدخل ومعه أثنان آخران، يرفعانه من بين جثث بعض جراح اصحابها تنزف دما لم يتخثر بعد.
- أنه معاون آمر القاطع.
يلفون جروحه الغائرة في خاصرة البطن، بقطعة قماش انتزعت من بدلة زميل له فارق الحياة. يخرجون من المدرسة، يتملكهم الذعر كل في اتجاه، لا يعرف احدهم الخطوة القادمة. انها فرصة ضئيلة للنجاة، ومع هذا تستحق المجازفة لانهم أصلاً من الاموات.
الموقف في مناطق أخرى من النجف مختلف تماما، السيطرة فيه لصالح المنتفضين.
تعقد المحكمة الشرعية الثورية جلستها في الصحن الحيدري، يتحتم على القادم اليها مغفوراً من البعثيين أن يمر عبر صفين من الرجال المسلحين بالعصي والقامات. المحظوظ منهم يصل مجلسها مغطى برشقات بصاق تعينه على تقبل حكم الاعدام،

وغيره من المعروفين على وجه التحديد، يتلقى ضربات من العصي وطعن بالسكاكين، لا تساعده في الوصول حياً ليسمع حكم الاعدام.
الجماهير الغاضبة تلقي القبض على شاعر القادسية الشعبي فلاح عسكر، تنهال عليه الضربات من كل مكان، يرتجل قصيدة في مدح الانتفاضة كآخر أمل للنجاة من قبضة الانفعال مطلعها:
هذه ثورة الاحرار... احرسها يبو السجاد. لا تشفع له كلماتها التي خرجت مع أنفاس متقطعة.
لا يستطيع اكمالها بعد أن تقدم نحوه شاب بلباس أسود يمسك سكين، كأنه قصاب متمرس، خاطبه بلغة الثوار:
- أخرج لسانك القذر هذا.
يجيبه بتوسل:
- أنا دخيلكم اليوم.
فيرد عليه:
- نسيت شعرِك في مدح الطاغية وتمجيده، ألم تكن شاعر القادسية؟. يوخزه بالسكين في صدره، ثم يمد يده اليسرى في فمه، يساعده أثنان آخران كانا يشتمان بحرقة. يوَسعُ فتحة الفم بسكينه الحاد لتصل الى أرنبة الاذنين، حسبها كافية لمسك اللسان جيدا ويكمل حديثه:
- هذا لسانك العفن، سأقطعه الآن لتكون عبرة لغيرك.
يقطعه مثل لحمة ظهر يشفيها قصاب متمرس لعميل خاص، يضعه في فمه النازف، يطلب مضغ قذارته.
يدخل الحلبة شاب آخر، يسكب في جوف الشاعر المعروف بانتهازية مدح الرئيس ما تبقى من وقود في سيارته. يشعله بعود ثقاب، يتعالى الهتاف بنهاية أيام القادسية السوداء.
الجرحى بالمئات، بل بالآلاف، يختلطون في ردهات المستشفيات التي أبقيت أبوابها مفتوحة، يصعب التفريق بين الراقدين على أسرتها، المحسوبين على الجيش الشعبي والشرطة والحزبيين وبين الثوار المنتفضين. جميع الاصابات جروح ناتجة عن طلق ناري، توجع اصحابها لنقص في المورفين، حتى لم يعد أحد يتذكر ان الراقد بجنبه عدو مسؤول عن الاصابة التي جلبته الى هذه المستشفى أم صديق ساهم باخلائه اليها.
ملازم الشرطة زيد المنسوب الى شرطة الدوريات، يتلوى من جرح فرغ الطبيب من خياطته تواً في الفخذ الايسر، تقف على رأسه الممرضة الشابة رضاب، تحاول ملاطفته على أمل التخفيف من ألمه، يستهويه الحال سعيا منه للهروب من خوفه، وربما التقرب اليها بدوافع الغريزة الشبابية.
يبادلها الحديث بود أكثر بعد ان وجدها من مدينته قائلا:
- أنتِ من الحلة أيضا؟.
- نعم من محلة الجامعين، شقيقي حسام، رحمه الله، كان ضابط شرطة، قُتل في عملية تعقب لعصابة تهريب آثار في السنة الاولى من تخرجه.
يجيبها بثقة:

- حسام على جواد؟.
- نعم انه هو.
- الله يرحمه كان من نفس دورتي في كلية الشرطة، كان شجاعاً بكل معنى الكلمة.
تقترب منه تهمس باذنه:
- لا تذكر وضعك الوظيفي ولا رتبتك، لان الظروف غير طبيعية، ولا أحد يمكنه الاطمئنان للآخر.
هَمسَتُها كانت وهجاً حاراً أشعل في داخله رغبة في الاستمرار معها في الكلام. تركته ساعة، أتت من بعدها بصحن من الرز، وصمونة من اليوم الفائت.
ابتسمت، قائلة:
- أكيد لم تتناول أي طعام منذ دخولك المستشفى صباحا.
- صحيح.
عاشت يداكِ على هذه الالتفاتة، خبريني رجاءً من أين لك هذا الطعام والمستشفى لا تقدم مثله للمرضى الراقدين.
تجيب:
- هذه حصتي جلبتها من المطبخ الخاص بالكوادر الطبية.
- كُل بسرعة، وحاول أن لا تثير انتباه القريبين منك.
مد يده في الصحن، وبدأ الاكل بسرعة أعتادها في كلية الشرطة، فوجدها من الوجبات التي لا ينسى لها طعم.
دنت منه، فحصته، طمأنته على الجرح الذي لم تمس فيه الرصاصة عظم الساق، وتركته للتمتع بالراحة على أمل العودة لاحقا.
صخبٌ يقترب من المستشفى، تتلقف رضاب طبيعته بغريزة الانثى الذكية، تتجه مسرعة الى الردهة التي يرقد فيها زيد، تجمع ملابسه العسكرية المركونة على سريره، ترميها وسط كومة ملابس تغطيها بقع دم متناثرة، تجري سريعا الى صالة العمليات، تخطف جلابية نظيفة، خلعها صاحبها قبل دخوله الصالة، تلبسه اياها بارتباك بادٍ على وجهها الاسمر المستدير، تحثه على الاتكاء على كتفها القوي، لا تجيبه على استغرابه، تكرر طلب الاتكاء وتَحمُل الالم، تسير به خارج الممر المؤدي الى الردهة الرابعة.
يعترضها قريبا من الباب الداخلية، أحد الثوار بيده قائمة من الاسماء، يسألها:
- ماهو اسم المريض؟.
تجيبه بلهجة الواثق من نفسه:
- انه محمد بن السيد جواد، اصيب بطلق ناري في ساقه، عن طريق الخطأ، اصابته بسيطة، أصر على ترك المستشفى ليُفرغ المكان الى جرحى اكثر حاجة للعلاج، سأوصله الى سيارة السيد التي تنتظره في الباب، وسأعود على الفور، المجاهدون المصابون بحاجة الى المزيد من جهود التمريض.
يخاطبها وجها لوجه:

- وردتنا معلوات عن وجود خونة من الجيش الشعبي والاجهزة الامنية والبعثيين، يتعالجون في هذه المستشفى.
ردت وقلبها يرتجف:
- أقترح الذهاب الى الادارة، لديهم سجل بالاسماء، لتسهل عليك الامور، لاننا ممرضات نساعد في العلاج فقط.
- أذهبي وعودي بلا تأخير.
البيت الذي تقيم فيه مع صاحبتها الممرضة البغدادية قريب، تصله بسرعه، ساعدها زيد الذي أستجمع قواه في مواكبة السير السريع بعد سماع الحديث. تفتح بابه مع التفاتة خفيفة الى الوراء، يصفر وجهها الشاحب، وكانها قد عملت عملا لا يمكن النجاة من عقابه:
- ابق هنا، أسلم لك من المستشفى، سأتدبر سيارة تقلك الى الحلة، قبل عودة زميلتي من نوبتها في المستشفى التي تستمر الى المساء، واذا ما حضرت لاي سبب كان، قل لها أنك ابن عمي وقد أصبت اصابة بسيطة، وتنتظر الوالد لاصطحابك الى الحلة.
آلاف الشباب يدخلون الشوارع من جهة المقبرة "وادي السلام"، يطلقون النار على أي هدف يرتدي الزيتوني، مواجهات عنيفة بين حزبيين يحسون طوق الموت يلف رقابهم، وبين شباب منتفضين يحكمون الطوق.
جثث في الشوارع، لا يجرؤ أحد على دفنها وان قضت قريبا من المقبرة، الخوف يحكم سلوك الانقاذ، والدفن، والتجوال، والاتصال. لا أحد يجرؤ على رفع جثة أحد أو مصاب فاقد الوعي، خشية ان يكون بعثيا.
جموع تركب سيارات متنوعة، ترفع أعلام متنوعة، تتجه الى الكوفة، تجد مظاهرة قد خرجت قريبا من مسجدها الكبير، تنبؤها بانتهاء حكم الظالم الى الابد.
تتعالى الهتافات والزغاريد، وتُطلق العيارات النارية في الهواء، يفر منتسبو الجيش الشعبي الى بساتين الكوفة المحاذية للمدينة.
تنتهي السلطة في الكوفة تماماً، وتتم السيطرة بوقت قياسي لم يزد عن النصف ساعة.
يُجلب القائمقام وأمين سر الشعبة الى المحكمة الشرعية المستمرة في انعقادها داخل الصحن الحيدري طوال الليل والنهار، لم يستطيعا الهرب مثل باقي الرفاق بسبب هول المفاجأة، واحكام الطوق على مكانهما من قبل الثوار.
يظهر صوت من وسط الضجيج الساري في شارع الكوفة الرئيسي، ينادي:
- عليكم التفتيش عن السجون السرية في المنطقة، هناك واحد تحت مرقد الصحابي كميل بن زياد.
يتغير اتجاه الجمهور، يركضون جميعا صوب المرقد، يفتشون الجدران والارضيات، لم يجدوا، شيئا.
يُصر الداعى على وجوده تحت المرقد قائلا:
- لقد سمعت عنه من عامل لحام، صنع له الابواب، قبل سنة من الآن.
طالبه البعض من الجمهور بتسمية العامل.
يظهر أحدهم كان سائرا في المظاهرة مؤكدا:

- أنا هو، أتبعوني.
يسبقهم الى مدخل جانبي في بيت يقع بعيداً عن المرقد بمائة متر، يدخلون منه يوصلهم الى المطلوب، تكسر ابواب الزنزانات بسرعة فائقة، يخرج شيخ كبير، غطت لحيته البيضاء صدره العاري.
ينطق أولا بسؤال:
- ماذا حل بالبكر؟. هل تم القضاء عليه؟.
كأنه حجز في هذا السجن بداية حكم البكر عام 1968.
يتجول المنادي بين الزنزانات. يركض بذهول. يُخرج كل الموجودين، يبشرهم بالحرية، يصل الاخيرة، يصاب بالخيبة، والده ليس من بين المساجين. يترك المكان بعد آخر سجين يجر قدميه جرا، كانه مشى بشكل متواصل ليومين مستمرين. يحل المغيب. تقام الصلاة، يعلن فيها السيطرة التامة على عموم المحافظة.
يتقدم رجل ملتحي من حاكية المؤذن، يطلب من النجفيين بصيغة الأمر عدم ايواء البعثيين، لابد من تقديمهم الى المحاكمة، فالمحكمة الشرعية باقية في حالة انعقاد، التخلص من آفة البعث واجب شرعي.
يتنبه كريم للوضع، يخاطب الحاج حمزة:
- حجي، لقد مضى على وجودنا في النجف يومان، ولم نحظ بمقصدنا، النجف قد أنتفضت والتحقت بباقي مدن الجنوب والحمد لله، فلا نعتقد أن الظرف يسمح لنا بالبقاء أكثر.
يجيبه بهدوء:
- هذا عين العقل، اتركوا الوصية لي، سأبلغها عندما تسنح الفرصة، وسأرسل من يبلغ الجواب الى السيد في البصرة عند حصولي عليه، لا تهتموا بهذه الامور البسيطة.
يتقدم منه كريم قائلا:
- شكرا لك، ضيافتك طوقت أعناقنا بالامتنان.
- أبداً، كان لكم فضل في المجيء وتحمل المخاطر، فأنتم مثابون ان شاء الله. ابلغوا سلامي الى السيد، وخبروه أن يتصرف بما تمليه عليه الظروف، هو مخول بما يتخذه من قرارات، والبركة فيكم تقفون الى جانبه.

الديوانية تخرج الجمر من تحت رمادها الراكد، تعيش حالات من التهامس بين مجموعات هنا وهناك، زاد ظهوره، وأقترب وجوده من البيوت وأرصفة الشوارع.
شيخٌ من آل غانم جاوز السبعين مع ثلة من الغاضبين يندفعون نحو المخازن الغذائية. يفتحونها بقوة العصي، يعلنون سيطرتهم عليها، وسقوط السلطة.
ضباط من أهلها، يتركون ثكناتهم، يلتحقون بأهل الانتفاضة، يشكلون مجموعات، يحاولون توحيد جهودهم وترتيب وضع قيادتهم، باقامة مركز لها في معسكر الديوانية التي تمت السيطرة عليه رمزا باقيا في شموخه من أيام الملكية.
كريم العائد وصديقه من النجف دون تحقيق غاية أيصال الرسالة الشفوية، وتلقي الجواب مباشرة، يمران بهذه المدينة الثائرة تواً، لا يريدان التوقف أكثر من وقت بسيط لاستطلاع موقف قد يسأل السيد عنه في البصرة. يجلب انتباههما تجمهر ضباط برتبهم العسكرية ومراتب آخرين يحتفضون باسلحتهم، يتحاورون حول طريقة تشكيل قيادة تجمعهم. يتفقون على ان يكون القدم العسكري معيارا لتراتبها. يختلفون قبل الشروع بتطبيقه سياقا في التعامل مع الواقع. ينجحون فقط في توزيع اسلحة متنوعة تمت السيطرة عليها من مشاجب الوحدات التي تواجدت مقراتها في المعسكر المذكور، التوزيع يجري دون ضوابط ولا استثناءات، تبين لاحقا ان بعض ممن استلم السلاح، هم ضباط أمن ومخابرات أنزلتهم ثلاث طائرات سمتية، انتزع الموافقة على تحليقها في أجواء العراق مفاوضو الخيمة العامرة في صفوان... ضباط أمن ومخابرات تغلغلوا مع الجمهور، صوروا ما يحلوا لهم من احداث، وشخوص مهمين، نادوا بولاية علي وبالحكم الجعفري، مثل أقرانهم في باقي المحافظات. ينتهي توزيع آخر بندقية لآخر مستلم لم يسال عن أصوله، فيترك كريم وصديقه الديوانية عائدين على نفس الطريق.
اللواء الركن عبد العظيم يقترح الذهاب الى مستودع الدروع، مع بعض المراتب المنتفضين، يؤكد على ضرورة فتحه وجلب الدبابات المخزنة من أجل اقحامها بالثورة الزاحفة صوب الحلة، ومن ثم الى بغداد بقيادته لان صنفه أصلا من الدروع. يتأخر في الوصول الى المخزن. يتبادل مع زملائه الاتهامات. يحدث أول انشقاق، يأخذ بسببه مجموعة بلا دبابات يتجه بها الى الحلة، يكرر مع زميل له ان المجموعة ستكبر وستجد الطريق سالكا الى بغداد بعون الله.
العميد تحسين يرأس مجموعة أخرى، يتأمل معها الوصول سريعا الى بغداد، يحل الليل على كلاهما قريبا من اسوار الحلة التي فتحت المظاهرات وأعمال العصيان المسلح ثغرات فيه، سهلت على ثوار الديوانية الحالمين بالوصول الى بغداد، الدخول الى صوبها الكبير. يحملون دون غيرهم شعار أقتحام بغداد عاصمة الحكم ومركزه القوي، لاثارة حماس المتوثبين للثأر.
- الصباح رباح، يخاطب العميد جماعته الثوار قولاً، لتهدئتهم وتخفيف مشاعر الانفعال. يبيتون ليلتهم في البساتين القريبة من حي نادر شمال الحلة.

يتسلل بعضهم الى داخل المدينة يقضي ليلته عند أقارب له أو أصدقاء. تَجمعَ المتفقون من جماعتي اللواء والعميد صباحا بنفس المكان. حاولا تنسيق عملهما سوية، حصلوا على معلومات تؤكد القيام بمحاولات أنتفاض في أحياء نادر والمحاربين والجبل والقاضية، تسهل عليهم أتمام عملية الخرق المطلوبة في خطة التوجه الى بغداد.
الساعة العاشرة وقت مناسب لاتمام فعل الاختراق، واسقاط الرموز والمقرات. نجحت الجهود، بات الصوب الكبير تحت السيطرة التامة للمنتفضين من أهل بابل. حقق بعض الثوار العسكريين غايتهم في التسلل الى الصوب الصغير، نشروا اخبار السيطرة على الصوب الكبير أرعبت المسؤولين، سهلت لبعضهم تجاوز الحلة باتجاه المحاويل أملا في الوصول الى بغداد.
المحاويل التي ثار أهلها عصر نفس اليوم، اصطدموا بمنتسبي وحدات تتحشد في المعسكر المسمى باسم القضاء. يخرج من مكمنه رئيس عشيرة تقيم قريبا من الطريق الرئيسي الواصل الى الحلة، الشيخ ابن حميد، يقود أفراد من عشيرته، ورجال أمن نجوا من قتل طال زملاءهم أثناء أقتحام الثوار مديرية أمن بابل. يَنصبُ سيطرة على الطريق قبل المحاويل، يحصل على تعزيزات من قوات خاصة ارسلت له خصيصا من بغداد.
يوقف الزحف الذاهب الى بغداد، ينهي الحلم، يفتعل مذبحة، يقتل العشرات يدفنهم في حفرة أعدها خصيصا على تل محاذي الى طريق الخاتونية، سجلت مقبرة جماعية، وسجل موقعها النقطة الاخيرة التي وصلها الثوار في جهدهم الساعي الى استهداف بغداد.
صدمةٌ تعيد الثوار الى الحلة، والسعي لاكمال السيطرة على الصوب الصغير، بانتظار اندلاع ثورة في بغداد، ستنطلق شرارتها حسب الاشاعات من بين الشاعرين بالحيف في مدينة الثورة والحرية والشعلة فجر الغد.
أهالي الحمزة جنوب الحلة ينهون السيطرة على الناحية بنفس اليوم، يتجهون الى مركز محافظتهم بصوبها الصغير، يقيمون السيطرات على الطريق السياحي، يصطدمون في أطراف المدينة، بمقاومة شديدة من قبل الحزبيين وقوات أمنية دعمت جهدهم الامني من بغداد، فالحلة هي خط الدفاع الاخير عن بغداد، جرى التركيز عليه. أستنفرت قوات الامن والاستخبارت، وبعض الوحدات العسكرية المتفرقة للحيلولة دون أختراقه.
تقدم العميد تحسين ومجموعته الى الجسر الجديد، يحاول عبوره بقصد الضغط على القوات الحكومية المدافعة عن مبنى المحافظة، يفشل في محاولته الاولى، يتوقف في مكانه ينتظر دعم المجموعات الاخرى التي تمر قريبا منه. لا فائدة من تقديم الدعم فالتنسيق بين المجموعات أصبح شبه معدوم، والاتصال بينهم غير موجود، ونتائج الموقف القتالي شطرَ المدينة الى شطرين، أحدها مع الانتفاضة والآخر مع الحكومة، ومازال الكر والفر سائدا كسلوك قتالي بين الجانبين.
الجزراوي نائب الرئيس يظهر في الصوب الصغير من الحلة حاملا كل الصلاحيات. طالع الدوري المحافظ، يجلس الى جانبه، يقودان المعركة.
يصدر الجزراوي أوامره بحزم:

- الاسبقية الاولى منع أي عبور للغوغاء من الصوب الكبير الى الصغير، لابد من تركيز الجهد الامني الآن في هذا الجانب الذي نتواجد فيه. يجب جعله نقطة أنطلاق لنا الى الجانب الآخر.
يسأله المحافظ:
- وماذا نفعل بجهة الطريق السياحي، التي تفيد آخر التقارير، أن البعض من الغوغاء وصلوا منه الى القريب من محلة الوردية.
- المهم ايقافه بأي ثمن، ننتظر الليلة وصول تعزيزات وعدنا بها الرئيس حفظه الله ورعاه، سنستخدمها أولا بهذا الاتجاه.
بغداد يلفها القلق من كل جانب، الرئيس وعلى غير عادته لا يظهر في وسائل الاعلام، اشاعات تنتشر حول اختفائه، بعضها مقصود لاغراض التمويه. يشكلُ مركزاً لقيادة العلمليات الخاصة بالانتفاضة، يوزع اعضاء قيادته القطرية على المناطق التي لم تسقط بعد أن حدد مهاهمهم كقادة ميدانيين.
اشتباكات تحصل بين حماية الاذاعة في الصالحية من الحرس الجمهوري ومقاتلين منتفضين ساعين الى السيطرة عليها. نتيجتها عشرة شهداء من جانب المنتفضين، وعدد قليل غير معروف من العسكريين المدافعين.
البغداديون يتوقعون اندلاع الثورة بين لحظة واخرى، تنقل اليهم الاخبار من مدن بابل وديالى والنجف وكربلاء القريبة. مفارز أمن تشكلها الدولة، تأخذ أماكن لها في الشوارع الرئيسية تزداد اعدادها في مدينة الثورة، يقترب من أحداها الموجودة عند تقاطع علوة جميلة مجموعة شباب، تشتبك مع المفرزة، يتبرع صادق في اقتحامها بقنبلة يدوية، يتقدم منها، يؤكد انه رفيق حزبي جريح، يمثل مشي الجريح، يلقي القنبلة اليدوية وسط المفرزة، يسدد أحد منتسبيها إطلاقة الى صدره العاري، ترديه قتيلا بنفس الوقت الذي جاء انفجار القنبلة بباقي افراد المفرزة.
خمسة شباب من أهالي مدينة الثورة، يجوبون على معارفهم من الضباط والمسؤولين الساكنين في حي جميلة وفلسطين والوزيرية يؤكدون ضرورة مغادرتهم البيوت هذه الليلة، ليلة الخامس على السادس من آذار، شرارة الثورة ستنطلق فجرا بعد الصلاة، وسيزحف المنتفضون من هذه المدينة الى وسط بغداد أفواجاً لا يمكن إيقافها. يتسرب الخبر الى الحكومة التي تحشد كل جهدها بعمل مداهمات. تغلق الجوامع. تقيم الكمائن على الطريق المؤدية الى المدينة الساعية الى الانتفاض. تضع أهلها الذين تظاهروا عدة مرات داخل اسوار من السجن المحروس ببنادق لا ينقصها العتاد.

كاكة حمة

كاكة حمه، البيشمركة المعروف بحنكته وشجاعته، يتقاعد ثوريا قبل أوانه، يعزل نفسه مع عائلة متواضعة كوّنها متأخرا عن أقرانه لعقدين من الزمان، لشغفه بالقتال واعتقاده الراسخ انه السبيل الوحيد لاجبار الحاكم على ارساء قواعد العدالة والمساواة لقومه الاكراد. شقةٌ وسط السليمانية، المدينة التي يحتضنها جبل أزمر من الشرق، يدفع نصف ثمنها مقدما، من حصته في بيت العائلة الذي باعه الورثة في قريته سركلو، ويبقى النصف الآخر اقساطاً شهرية مريحة، يسددها من راتبه كسائق في شركة مقاولات محلية. الزوجة، تصغره بعشرين عاما، هي الباقي في الحياة، ومولود يتأملان مجيئه بعد شهرين، سيغير لهم وقع الحياة. ينهض من نومه مبكراً على غير العادة، يحس وكأنه مخنوق من داخله. يصعد سطح العمارة المطلة على أحياء المدينة القديمة لشم الهواء، يحس لسعة برد ذكرته بليال قضاها مع بندقيته البرنو وسط ثلوج طالما غطت جبال أزمر وكويزة وبيرة مكرون، تلك التي اتخذها قواعد له ايام الكفاح. يستذكر لحظات القتال الحرجة في سبعينات القرن الماضي وثمانيناته، يمد بصره الى أمام، يختلس نظرة سريعة الى مقر الامن القريب أنعشت في داخله شيئا فشيئا شهوة القتال، يستعيد بذاكرته الجبلية لقطات بقيت محفورة في الذاكرة البعيدة لمنتسبي الجيش الشعبي عن قريته قبل ربع قرن من الآن، وعن صور كانت له يحملونها كمطلوب خطير لمنظومة استخبارات المنطقة الشمالية، يعرضون الف دينار جائزة لمن يساعد في اتمام عملية القبض. يُتعبهُ التأمل وقوفا، يجلس على بقايا كرسي دُعمت إحدى أرجله بكومة طابوق اسمنتي، يتخيل ما حدث في الجنوب، يستشعر بحدسه الثوري لزام حصوله هذا الصباح في مدينته المعروفة بتمردها على الحاكم منذ التأسيس الاول لدولة العراق، بعد أن شاهد عصر أمس تجمعات الشباب تناقش في السياسة، وتظاهرة انطلقت من سوق القيصرية ترفع شعارات بالضد من الحزب الحاكم، يكلم نفسه بصوت مسموع:

- لابد ان نبدأ، حل الوقت المناسب. كان علينا أن نبدأ قبل غيرنا. لماذا تأخرنا الى هذا الوقت؟.

ينتبه الى حاله، يخشى من أن يسمعه أحد فيتهمه بالجنون، يعود الى شقته مدفوعا بقوة تمرد في داخله كانت تسايره أيام الشباب، يخلع حافة سريره الخشبي العتيق، يخرج بندقية البرنو رفيقة عمره الطويل.

تكلمه زوجته الشابة:

- الى أين أنت ذاهب؟.

يجيبها:

- هنا في القريب لدي مشوار وسأعود في الحال.

- حمة هل ستعود الى الجبل وتتركني وحيدة هنا؟. من لي ولولدك الذي في بطني غيرك.

- قلت سأعود، أرجعي الى الفراش، ولا تقلقي.

السليمانية في الايام الاولى للربيع تتنفس أرضها أزهاراً برية، تزحف زاهية باتجاه الجبال لتزيح بقايا ثلوج متروكة على قممها الجرداء، تزيد من برودة الهواء القادم من جهة الشرق. الناس في شوارع المدينة يسيرون بعدة اتجاهات، هكذا هم بداية ساعات الدوام الرسمي، منظر البرنو على كتف كاكا حمه العريض يثير التحدي، يجلب من حوله رجال من كل الاعمار، أغلبهم شباب في مقتبل العمر، لا يعلمون وجهة شيخهم الوقور، يتبعونه بحكم الرغبة في الاطلاع، وربما لدعمه في حال قيامه بفعل يتنبأ البعض أحتمالات القيام به. يصلون قريبا من نقطة حراسة وضعت من يومين في بوابة النادي العسكري، يطلق اول اطلاقة، شعر بها الحارس تمس خوذته الحديدية، يصوب الثانية الى عمود قريب من النقطة، يحدث تنططها على العمود صوت أزيز مخيف. يترك الحراس مكانهم، ينسحبون الى مهجعهم، يدخل حمه والجمهور السائر معه الى الداخل، يخرجون الجنود أسرى حرب، قائدها محارب عاد من تقاعده طوعا.

ينادى على الشباب:

- لا تؤذوا الجنود، انهم أسرى لاذنب لهم، يمكن مبادلتهم باكراد مسجونين عند صدام حسين.

صوت الهرج واطلاقات البنادق، ومنظر الاسرى الخارجين الى الشارع العام، والهتاف بسقوط الرئيس يغري آخرون، يدخلون الحلبة مسرعين، بينهم مسلحون قدموا من البيوت القريبة.

يزداد عدد البنادق المحمولة عدة أضعاف، يجد كاكة حمه نفسه سائراً في مقدمة موكب هو قائده بالفطرة، يتخيل نفسه قد عاد الى الجبل كآمر مجموعة قتال، وجهه يتهلل عن بشر صادق، في نظرته لذة تمتع ورضا لا ترى الا في عيني منتصر، وعلى شفتيه ابتسامة القائد الواثق بالنصر المحتوم.

الوقت يمر سريعا، تجمعات تظهر في مناطق متفرقة من المدينة، تظاهرة تخرج باتجاه المحافظة، مسلحون نزلوا من مخابئهم الجبلية، وصلوا توا بمهام محددة تركزت على مهاجمة المقرات الامنية والعسكرية داخل المدينة، تشرع بالتنفيذ بعد اطلاقات حمة التي انهت ذاك السكون المشوب بالقلق الشديد.

جنود السيطرات العسكرية، وحراس المقرات ينسحبون من أماكنهم دون قتال، كاكة حمه يأخذ دوره كما يراه مناسبا في ساحة القتال، يتصل بالمجموعات الاخرى، يُعرف عن نفسه، يتذكره البعض، فيشدون على ساعده آمرا لمجموعة مثل أيام زمان. يشير عليه قائداً حزبياً يحتل موقعاً بين الآخرين، بضرورة التوجه الى الامن العامة، فهي أعلى قائمة الاهداف.

ينادي في الجمهور:

- من يريد الحرية لكردستان فليتبعني الى معاقل الظلم، يلتفت خلفه، يدرك ان ما يزيد عن عشرين مسلحاً حسموا أمرهم، وساروا خلفه قائداً أطمئنوا له في ساعة من الزمان، يسمع أصواتهم تنادي:

- نحن معاك أينما تذهب.

يشتبك مع حراس المديرية، يمسك مكبرة صوت كان قد أحضرها مسلح منظم في حزب سياسي يتكلم بلغة عربية فيها لكنة كردية واضحة:
- سلموا أنفسكم وسنضمن سلامتكم، لم نأتِ لقتلكم، نريد منكم أن ترحلوا عنا وتتركونا نعيش الحرية بسلام.
يتلقى الاجابة رشقة من رشاش يتمركز صاحبه في أعلى البناية تدفعه لانهاء الحوار. الموجودون في الداخل، يفهمون جيدا أنهم مطلوبون، وان الاكراد يكرهونهم كرها يحتم نهايتهم قتلا بأي حال من الاحول.
أصدر مديرهم أوامره بعدم الاستسلام والاستمرار بالقتال، قائلا:
- لا تصدقوا ما يقال في الخارج، نحن المطلوبون، اذا ما مسكونا لن يتعاملوا معنا أسرى بل سبايا، سيمثلون بجثثنا، دعونا نصمد، سوف لن يتركنا الرئيس محصورين، ثقوا سوف يرسل من يدعمنا في القريب، المهم أن نصمد في قتالنا أطول وقت ممكن، وسيأتي الدعم ان شاء الله.
يكلمه أحد المنتسبين بقدر من الارتباك:
- سيدي، أربعة مسلحين ألتفوا علينا من خلف البناية، أثناء بث الصوت من السماعة.
يجيبه:
- أصعد أنت مع حامل الرشاشة الى السطح. اقتلوهم فوراً. أنتبهوا الى كل الجهات. ضع في حسابك أن النجدة ستأتي حتما.
الرمي يبدأ شديداً من كلا الطرفين المتقابلين، يستمر الى ما بعد الظهر، ينفذ صبر كاكا حمه على غير عادة التروي التي أكتسبها في قتال الجبال، يطلب مساندته ليتقرب من السياج على أمل مفاجأة الحراس برمانة يدوية وفرها له مقاتلو الحزب الملتحقون بمجموعته لاغراض التدعيم. يصل المكان الذي وضعه في مخيلته مناسبا لقذفها، يتلقى رشقة رشاش، مزقت أحشاءه، سقط على اثرها، قبل ازالة مسمار الامان.
تعالى صياح الشباب:
- انقذوا حمه.
يتقدم رؤوف بلا سلاح، لعدم أحتفاظه بسلاح في البيت مخالفاً التقاليد الكردية لتلك الايام. يصله جسداً توقفت حركته تماما وسط بقعة دم مازالت تتسع من شدة النزف. يأخذ الرمانة اليدوية من اصابع تطبق عليها بقوة التحكم اللا ارادي للاعصاب، يتقرب من السياج، بحماية زملاء فتحوا نار بنادقهم باتجاه واحد، ينجح في رميها، يفتح عصفها القوي الباب ويقتل الحارسين الموجودين خلفها. يستمر القتال بين رجال أمن عارفين بمصيرهم، يقاتلون بشراسة، مقتنعين بفقدان الامل بالنجاة، وبين ثوار منتفضين، مقتنعين بحتمية النجاح، وتحقيق اهدافهم في اسقاط سلطة الامن التي تمثل روح النظام.
تعجز المجموعة التي خسرت قائدها وثلاثة رجال آخرين، من دخول المبنى الذي تشاهد في غرفه حرائق للوثائق والمستندات.
الخبر الخاص بمقاومة رجال الامن ينتشر في المدينة، تصل النجدات من المسلحين المنظمين، تشترك في القتال، تطلق اربعة قذائف صاروخية على المبنى من الجهات

الأربعة، يخف الرمي من الداخل، في الوقت الذي يزيد اضعافا من الخارج. يقترب الوقت من المغيب، تحترق البناية، يتصاعد الدخان من شبابيك اقتلعت من اماكنها.
آثار الرصاص تغطي الحيطان، رائحة اللحم الآدمي المشوي يمكن شمها من بعيد، لم يبق شيء يمكن تسميته مقرا أو دائرة أمن.
ينتهي الرمي، يصعب دخول البناية، يحسبها المنتفضون، مديرية أمن سقطت، وأنتهت بسقوطها السلطة. يعلن عن هذا الحدث في أرجاء المدينة وبوسائل اعلام تترقبه كل الوقت، مع اعتراف بأن من فيها قاتل بقوة وأصرار.
مدينة اربيل العاصمة الصيفية للعراق تسير بنفس الاتجاه، مسلحون يأتون من جهة شقلاوة وصلاح الدين، يدخلون أحياء المدينة الشمالية، وآخرين يشتبكون مع قوات عسكرية قريبا من القلعة.... أشتباك تزداد حدته زحفا باتجاه وسطها والسوق القديم. القوات الامنية تقاتل طوال اليوم بقدراتها الذاتية.
الجمهور الكردي الاربيلي ينزل الى الشوارع في اليوم التالي، مطالبا باسقاط النظام، مسلحو البيشمركة يطوقون المدينة من كل الجهات، والمفارز العسكرية التي في داخلها تنعزل تماما عن مقراتها في الخارج، لا مجال للاستمرار بالقتال، تستسلم الواحدة تلو الاخرى، وكذلك بعض المقرات العسكرية، في الوقت الذي تقاتل فيه قسم من الوحدات بكفاءة غير معهودة. يحاول مسلحون اقتحام اسيجتها، ينجح بعضهم، وبعضهم الآخر يترقب انسحابها باتجاه كركوك. ينزل القائد الكردي كاكا محمود الى المدينة، يتجول في شوارعها، يقف عند الشواهد الباقية للمقرات العسكرية والامنية، يصدر اوامره بالسماح للجنود والضباط المأسورين بمغادرة المدينة دون سلاح، رسالة الى الحكومة المركزية في بغداد، أراد ان يكون توقيتها مناسباً لصب المزيد من الضغوط النفسية على كاهلها المضطرب. يعلن بنفسه أنتهاء سلطة الحزب الحاكم فيها ثاني محافظة كردية، تتبعها دهوك، لتكون المحافظات الكردية الثلاث خارج سيطرة الدولة المركزية بشكل كامل.

الهاتف المحوري لم يتوقف رنينه طوال الليل وبقية النهار في مكتب عضو القيادة القطرية، المسؤول الاعلى للمنطقة الشمالية علي حسن المجيد، بمقره الحصين قريبا من قيادة الفيلق الاول، وسط معسكر كركوك. يشعر بسببه وتطورات الموقف بالاعياء، وقلة الحيلة في الرد على استفسارات الرئيس عن الموقف في السليمانية واربيل ودهوك، وكركوك. يحاول التملص من الاجابة بطريقة التمني التي يتقنها في التعامل مع الرئيس:
- سيتحسن الموقف سيدي الرئيس. الرفاق يبذلون جهدهم وكذلك الضباط القادة. أستشهد أثنان من أعضاء الفروع، وأربعة من أعضاء الشعب، وعدد غير قليل من الرفاق، سيدي الرئيس.
انها مؤامرة دولية تستهدفك قائدا للامة العربية سيدي الرئيس.
يجيب الرئيس على تمنياته:
- نعم وبعد.
- سيدي قيادات التمرد الكردية، جزء من المؤامرة الامريكية.
يردعليه:
- انهم هكذا طوال الوقت.
- سيدي، الجنود في الجيش النظامي لا يقاتلون. سقطت مقرات الاجهزة الامنية جميعها دون أن يستسلم أحد من منتسبيها. لقد استشهدوا وهم يهتفون باسم القائد العظيم.
- أي نعم هؤلاء النشامى، سيخلدهم التاريخ.
- أننا صامدون، سنقف لهم بالمرصاد.
ستبقى رايتك مرفوعة باذن الله.
يحاول الرئيس انهاء المكالمة بتوجيهات يصدرها مباشرة:
- اسمعني علي، منطقتك خط أحمر لا يمكن الاقتراب منه، أريد أن لا يبق رفيق حزبي في مقره جالسا خلف مكتب، الجميع يتوزعون على الوحدات العسكرية، وقواعد الجيش الشعبي، يكونون في مواقع القتال بالمقدمة هكذا علمنا الحزب، لا أريد أن أسمع بعثي ترك موقعه وأنسحب، نحن جميعا مشاريع أستشهاد لهذه الامة المجيدة. هذا يومكم.
لم يقوَ المجيد في البقاء قريبا من التلفون، عند تلقيه خبر سقوط أربيل أواخر الليل الفائت، خشية اللوم الخشن من الرئيس الذي طمأنه قبل ساعة ووعده بالصمود، وهو العارف جيدا أن رئيسه أو بن عمه، لا يغمض له جفن في مثل هذه الايام، وان له ألف عين تنبؤه بما يحصل كل لحظة تمر.
يحاول تلبس دور الرئيس ويتحول الى موقف اصدار الاوامر الفورية:
- الرفيق جمال، تولَّ مهمة الرد على الهاتف المحوري الآن، لأني سأبدأ بجولة تفقد على القطعات العسكرية، والمقرات الحزبية، الامر خطير للغاية، لا يتحمل التأخير.
يجيب الرفيق:

- واذا ما أتصل الرفيق القائد.
- انت أعرف بالرد من غيرك، فسبق وان خرجت من مواقف أتصال أصعب.
- لا أعتقد رفيقي أننا قد مررنا بالاصعب مثل الذي نمر به اليوم منذ العام 1968.
- المهم أن تعرف القيادة والسيد الرئيس أني أفتش القطعات.
يهم بالخروج من مكتبه الى دار الاستراحة غاضبا، يلعن الاكراد والتركمان والعرب في الجنوب، ومن لم يقاتل من العسكريين والحزبيين، دفاعا عن مبادئ الحزب والثورة، يقابل الرفيق حكمت عضو الفرع في الباب، عند رجوعه توا من مهمة أرسله لها قبل ساعة لرفع معنويات المفارز ونقاط الحراسة في حي الشورجة ذي الغالبية الكردية. يجده مرتبكا. يسأله:
- رفيق حكمت ما الامر.
- رفيق علي الموقف ينذر بالخطر، اذ شاهدت بنفسي تجمعات شبابية عديدة بملابس كردية، وقوفهم وحركتهم تنبئ ببوادر عصيان.
يؤنبه بشدة:
- لماذا لم تبدهم جميعا، انهم خونة لا يستحقون الحياة. أطلب لي الرفيق جابر. تأكد هل عاد من جولته التفقدية لحي التسعين.
يرد الرفيق حكمت:
- لقد وصل الرفيق، هذه سيارته تدخل الشارع.
الاجابة التي جاء بها الرفيق جابر مشابهة قوامها:
- الوضع رفيقي أكثر من خطير، حركة غير أعتيادية في الحي الذي تسكنه غالبية تركمانية، مجموعات تقف في رأس كل شارع، كأنهم ينتظرون فعل التمرد على الحزب والثورة.
ينهره بقوة:
- ماذا فعلت الشعبة الحزبية في الحي؟. ماذا فعلتم أنتم القادة الذين يعتمد عليهم الحزب؟. أين الرفاق والانصار؟.
يجيبه الرفيق ماسكا أعصابه التي تغلي في داخله:
- كلهم موجودون، يحملون أسلحتهم، سيقاتلون الى الرمق الاخير.
- طيب عد الى الشعبة الحزبية في هذا الحي اللعين، أبق هناك، لحث الرفاق على القتال، عليك أن تكون في مقدمتهم أثناء القتال، البعثي دائما في المقدمة، رأسه مرفوع عاليا لشجاعته في القتال.
الرفيق جمال يلحق بالرفيق عضو القيادة أثناء توقفه في الباب، يخبره عن اتصال تلقاه في التو عن سقوط المقرات الحزبية في أقضية الدبس وطوزخورماتو، وسيطرة المنتفضين الاكراد والتركمان عليها.
عشرة ايام انقضت على انتفاضة البصرة، عضو القيادة الرفيق علي وبضوء التقارير والاتصالات التي وردته يشم رائحتها في كركوك، وكذلك باقي أعضاء قيادته، كل واحد منهم يشمها بطريقته الخاصة، لايستطيع البوح بما يشمه لرفيقه الواقف الى جانبه، لانهم

جميعا يمتلكون خبرة الوشاية المحتملة من الرفيق القريب عند البوح بما يشمه، رائحة لا يستطيبها الرئيس. ساعات الليل باتت ثقيلة، كأنها لن تنتهي أبداً، مسلحون يقدمون من أربيل يقتربون من كركوك، يقيمون الليلة على جبل زاكروس من جهة الشرق، بانتظار الدخول فجرا الى المدينة. يأتي الفجر يمطرون وسطها بقنابر الهاونات، يركزون رميهم على مقر القيادة والقاعدة الجوية المجاوران لوسط المدينة.
الرئيس لم ينم الليلة، وان تعود اخذ كفايته من النوم على كرسيه الوثير في مكتبه الواسع، يقضيها رواحا ومجيئا، يعجز عن تأمين الاتصال بالرفيق علي المؤتمن على أمن الشمال. ينفعل بشدة، يشتمه باللهجة التكريتية العابرة، (عجل وين صار هذا الكلب)، يُحَمِل الاستعمار كل الذنوب، ما حصل منها وما سيحصل. الساعة التراثية في الركن المقابل لجلوسه تدق الرابعة صباحا، يبعث على الفريق طه عضو المكتب العسكري، يعطيه رسالة كتبها بخط يده، يطلب تسليمها الى الرفيق علي، الغائب عن خارطة الاتصال. يؤكد:
- رفيق طه، خذ أحدث سيارة رئاسية، انطلق على الفور، أريد اطلاع الرفيق علي على المحتوى قبل شروق الشمس، أخبره بضرورة الصمود أو الموت.
يجيب الفريق الواقف بوضع الاستعداد:
- نعم سيدي، سأغادر الآن.
لم تشرق شمس كركوك التي تغلي بخليطها السكاني الغريب، قبل سقوط قنابر الهاون على كل ارجاء المعسكر، وقبل أقتراب مسلحين من أسيجته السلكية المقابلة الى احياء المدينة.
يقترح قائد الفيلق على الرفيق عضو القيادة، قائلا:
- رفيق علي، أرى أن ننسحب الى مقرنا البديل، لنتمكن من الدفاع بكفاءة، نعيد تنظيم قواتنا ومن ثم نعاود الهجوم لطرد العصاة من المدينة، المعركة في الداخل رفيقي ومع سكان محليين يتمتعون بهذا الزخم المعنوي القوي، وكما تعرف، معركة من وجهة النظر المهنية خطيرة وشاقة.
يوقفه وسط الكلام، لا يريده أكمال فكرته العسكرية:
- ماذا تقول فريق حاتم؟. عن أي انسحاب تتكلم؟. البقاء هنا، والقتال هنا حتى الموت. أبق في مقرك تابع قطعاتك التي باتت تتهاوى واحدة تلو الاخرى.
المناقشة أنتهت، وبدلا من اتمامها سعيا الى التوصل لافضل حلول تلائم الموقف العسكري والامني المتداعي، يركب سيارته المرسيدس مع شخصان من حمايته وعشرة توزعوا على سيارتين أخريين من نفس النوع.
يلتفت صوب القائد القريب منه:
- حاتم، دافعوا عن موقعكم. أو تموتوا، فالحزب وقائدنا العظيم يستحقان التضحية. سأقابل الرفيق القائد، وسأشرح له الموقف بالتفصيل، سأطلب تعزيزات من الحرس الجمهوري الخاص.
يرد القائد العسكري:

- نعم سيدي.
يعطي الرفيق إشارة التحرك من يد تؤشر حركتها السريعة كم القلق الموجود في داخله.
الساعة تقترب من السادسة صباحا، يصل الفريق طه الى مقر الفيلق، يشهد بنفسه الارتباك، يجد عضو القيادة المسؤول الذي قصده بمهمة رسمية بأمر الرئيس، قد ترك موقعه قبل عشرة دقائق فقط، يشعر بالضيق والحرج، لان المهمة التي أتى بها تتركز على تسليمه الرسالة باليد مهما كلف الامر.
يكلم نفسه:
- كيف سأسلمها؟. ماذا سأقول للرئيس الذي لا يمكن الاطمئنان لردود فعله اثناء الغضب؟.
يقترب منه الرفيق حكمت، يهمس باذنه:
- لقد اتجه الى بغداد، سمعته يسأل سائقه فيما اذا كان الطريق باتجاه الحويجة آمنا، أعتقد أنه سيسلكه، لان الطريق عبر طوزخورماتو خطير بعد سقوطها بيد الغوغاء مساء أمس.

معركة كركوك

البوابة الخلفية لمعسكر كركوك آمنة، يتجه الفريق طه صوبها، يسأل مفرزة عسكرية، مازالت ترابط في مكانها عند تقاطع الطريق المؤدي الى الحويجة صلاح الدين:
- هل مر من هنا موكب الرفيق علي.
يؤكد الملازم نمير بالقول:
- ثلاث سيارت مرسيدس تجاوزتنا مسرعة باتجاه الحويجة قبل ربع ساعة، أعتقد انها موكب الرفيق عضو القيادة.
الخيار الوحيد لدى الفريق طه، اللحاق بالرفيق المسؤول السياسي والعسكري الاعلى في المنطقة، الساعي الى الابتعاد عن معركة كركوك ذات الاهمية الاعلى للمنطقة، وتسليمه الرسالة التي صار وجودها معه هماً يوازي هم البلد الذي توهنه الجراح، خاصة وانه فهم من الرئيس أنها تحمل تعليمات عن حتمية الصمود حتى وصول النجدات التي تحركت بطائرات سمتية مع الضياء الاول، وهي الآن في الطريق.
يكلم السائق الرئاسي الذي تعود الاستماع الى الاوامر ودقة تنفيذها:
- رحيم، بسرعة لم يعد لدينا وقت كاف، لابد من اللحاق بموكب الرفيق علي قبل مغادرته المنطقة.
يجيبه:
- عند عيناك سيدي.
السرعة تصل الى مائة وخمسون كيلومتراً في الساعة، والمسافة بينهما مازالت بعيدة، يطلب زيادتها أكثر. يَلمحُ السيارات المقصودة من بعيد، يحث رحيم بطريقة التشييم العراقية على زيادتها، فالجسر المؤدي الى صلاح الدين، قريب، يصلانه سوية، يؤشر بيده اشارة التوقف لامر هام، لا يعيره الرفيق الغاط بالتفكير اهتماما.
يطلب من رحيم اجتيازه الى نقطة السيطرة القادمة، قائلا:
- توقف الآن، دعني أترجل وأَلوّح له بيديّ عساه يراني، إنه يعرفني حق المعرفة.
تقف السيارة السوداء الرئاسية وسط الطريق، وما زال محركها يدور، استعدادا للوثوب، فيما اذا فشلت المحاولة، يترجل الفريق منها مسرعا، يأخذ مكانه خلفها منتصبا، يرفع يده التي تمسك بالرسالة معطيا أشارة التوقف.
يبطئ موكب الرفيق علي، يفتح شباك سيارته من مكانه في الخلف، يسأل بعصبية:
- طه ماذا حدث؟.
- عندي رسالة مهمة لك من السيد الرئيس القائد حفظه الله.
- طيب هيا أنتقل الى سيارتي.
يفتح الرسالة بيدين ترتجفان، ينوه بكلمات باهتة:
- لقد فات الاوان.
لا جدوى من إرسال قوات محمولة جوا، فالعصاة الاكراد دخلوا المدينة، وربما المعسكر، لقد أنتهى كل شيء بناه الحزب بربع قرن من الزمان.

يتدخل الفريق بالقول:
- سيدي، الذهاب الى بغداد مجازفة في هذا الوقت، خاصة وان السيد الرئيس يعتقد ويتأمل صمود القيادة في كركوك.
قولٌ لا يستسيغه الرفيق علي فيرد عليه:
- البقاء في كركوك بالنسبة لي غير صحيح، لان الموت أو الاسر... يعود في كلامه ليصصح:
- الموت طبعا لاني لا أقبل الوقوع بالاسر، فهو إحراج للقيادة في هذا الوقت العصيب، خاصة وان كركوك ستسقط حتما مثل اربيل والسليمانية والبصرة والكوت، هذا ما يريده الاستعمار.
- رفيق طه، الذهاب الى بغداد ونقل الحقيقة المرة الى السيد الرئيس حفظه الله ورعاه، ومن ثم البقاء الى جانبه ومؤازرته هو الاسلم والأهم، وما عداه لا شيء يستحق التمسك به حتى كركوك.
تشرق الشمس في كركوك قبل السابعة بنصف ساعة، يدخل المسلحون معسكرها الذي وصف بالقلعة الحصينة، ينسحب القادة العسكريون والحزبيون من بابه الخلفي، يتركون كل شيء حتى اسلحتهم الشخصية، الجنود ينتظرون في مواقعهم مذهولين، يسلمون أسلحتهم، يخلون المكان، كل بالاتجاه الذي يعتقده أميناً.
كركوك، مدينة الذهب الاسود بعد الشروق بدقائق تصبح خارج سيطرة السلطة المركزية، الاحياء الكردية في المدينة تحتفل بالانتصار، ومثلها الاحياء التركمانية. العرب يعيشون قلقاً غير مسبوق، يظهر بينهم الشيخ حميد يحاول تجميع قواهم، يشكل مع بعضهم دوريات لحماية الاهالي والمساكن، يفشل مسلحون في اقتحام الحي العسكري ذي الغالبية العربية، يبقى الحال على ماهو عليه، كانتونات تحاول الدفاع عن نفسها بقدراتها الذاتية.

بغداد صورتها مشوشة، وضعها الامني قلق، قيادتها السياسية في حال أجتماع دائم، ما تبقى من أعضائها ينامنون. يأكلون. يشربون في نفس المكان. يلاقون الرئيس حسب الطلب في نفس المكان.
أنتصف الشهر الثالث، أربعة عشر محافظة جنوبية وشمالية، أصبحت مراكزها خارج سيطرة الدولة. مبعوثون سريون للرئيس يتوجهون الى دول عربية واسلامية عن طريق العاصمة الاردنية عمان، ومنها ينطلقون الى عواصمها المحددة حصراً من قبل الرئيس. رسائله التي بحوزتهم تحوي اشارات ايحاء عن مستقبل مجهول للمنطقة والعراق اذا ما سيطرت ايران على البلاد.
قوة الزخم الدافعة للانتفاضة تتوقف عند النقاط التي أسقطوا فيها السلطة، بعيداً عن بغداد، لم تنجح جميعها في تشكيل ادارة مدنية.
لم تفلح أي منها في تكوين شرطة محلية لضبط الامن.
لم تستطع واحدة منها في استمالة وحدة عسكرية كنواة لجيش مستقبلي.
توقف الزحف والزمن، ومحاولات الامتداد الى العاصمة بغداد.
تحاول بعض الاحزاب السياسية المعارضة، الاستفادة من الواقع الجديد لتطبيق أفكارها في الادارة، فلم توفق. الجمهور خرج من طوق الخوف، لا يمكن ضبطه. الخدمات جميعها توقفت.
لم يبادر أي مسؤول اداري في المحافظات المنتفضة الى تنفيذ مهامه، ولم يستطع الخروج من بيته من أجل التنفيذ، لخوف في داخله، تبدل رمزيا من صدام الى آخر أشد مصدره الفوضى وبعض الغرباء.
مئات الثوار الحقيقيون، يقيد حركتهم احباط شديد، يقررون التوقف عند خط أعتبروه، النهاية، يعتقدون أنهم غير قادرين على تجاوزه.
ظهر فور سقوط المؤسسات الرسمية للدولة في محافظات الوسط والجنوب المنتفضة، جيل من النفعيين، يتسابقون فقط في الحصول على المكاسب، يتفننون في الايذاء والانتقام. يعزل أولئك الثوريون الحقيقيون أنفسهم في بيوتهم، يقضون جل أوقاتهم يجترون أحاديث بعيدة عن الثورة في مقاه يزداد البؤس على وجوه روادها.
كريم، يتوقف أثناء عودته من النجف في الناصرية، يقتنع وبالتأسيس على ما عاشه ولمسه، لأكثر من أسبوع، أن اسقاط النظام بعيد المنال، يؤكد:
- الثوار لا يمتلكون وسائل الاسقاط الكافية، العالم يتجه الى تغيير مواقفه من النظام باتجاه ابقائه عليلا.
يلتفت الى سالم وهما في غرفته يتمتعان براحة من سفرة النجف ليكمل الحديث:
- هل سمعت ما يرد في الاعلام؟.
- ماذا تقصد؟.

- بعض الكويتيين الذي ذاقوا مرارة نظام صدام، يصرحون أن بقاءه ضعيفاً، خير من المجازفة بنظام لا يعرفون توجهاته.
- السعودية غيرت من خططها في دعم الانتفاضة، حتى قيل أنها أوقفت طائرة لمعارضين وصلوها من داخل وخارج العراق، كان يفترض بها أن تقلع بالامس الى البصرة. ألم يعني هذا اشارة لتغيير خططها في هذا الشأن؟.
- لقد نجح صدام وجهازه الدعائي في اعطاء انطباع عن طائفية الانتفاضة.
يرد سالم بألم:
- المشكلة أننا لم ننجح في أثبات عكس هذا الانطباع.
يكمل كريم حديثه المقتضب:
- أعتقد أن أمريكا هي أيضا قد غيرت من اتجاهاتها، حتى انها سكتت عن حث الشعب العراقي لاسقاط النظام.
يؤيده سالم قائلا:
- أمريكا لها مصالحها، ولا يمكن الاطمئنان الى مواقفها.
- ما العمل؟.
- ننتظر مثل غيرنا، لا فائدة من أي عمل نقوم به، قد نندم عليه مستقلا.
تتغير نبرة صوته الجهوري قائلا:
- سالم، أطلب منك عوناً لن أنساه.
- حاضر.
- تذهب وحدك الى البصرة، تحكي حكاية النجف وما حصل الى السيد، تبلغه وصية الحاج حمزة، لأني محبط، ولا رغبة لي في الاستمرار، أشعر بالموت البطيء، أحس بأوهام تكاد أن تقتلني.
يرد عليه سالم:
- أنت مخطئ، لقد دخلنا الانتفاضة متطوعين، بل ونحن البادئين باشعال شرارتها في البصرة والناصرية. أنسيت أنك أول من تمرد على النظام؟.
- لقد عملنا ما أملاه علينا ضميرنا، لا ينبغي أن نأسف أو نندم، لان الندم سيأكلنا من الداخل، أنا لست معك فيما تقول، لست معك في البقاء بالناصرية، ماذا سيقولون عنك؟.
- أتقبل ان تلصق بك تهمة التقصير؟.
- لا يأخي العزيز، لقد تعاهدنا أن نكمل المشوار سوية، وعلينا أن نكمله، ولا مجال الى التوقف منتصف الطريق.
يبادر كريم بالقول:
- لا أعرف بما أرد عليك، عقلي قد توقف عن التفكير.
- لا ترد الآن، دعنا نأخذ قسطاً من الراحة لهذه الليلة والليلة التي تليها، نلتقي بجماعتك، ونرى الخطوة القادمة، السيد الان غير مستعجل في مسألة الحصول على الرد، فالنجف التحقت بركب الانتفاضة، وتحقق جزءاً مما أراد معرفته.
لماذا الاستعجال؟.

السيد الآن قد غرق مثل غيره في هموم الادارة والخدمات، حتى لم يعد قادرا على حك فروة رأسه.
دعنا نتمتع سويعات باستراحة مقاتل.
مصيرنا سيكون في البصرة شئت أم أبيت.

..... انتهت.....